سلسلة

المرأة في الأدب العربي

(٣)

مواقف المرأة

إعداد

ايهاب صبيح محمد زريق



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتبت المرأةُ على صفحات تاريخ البشرية أسطراً من نـــور، وأمجـــاداً لا حصر لها، وضُرب بهن الأمثال، وذكر الله تعالى عفافهن في القرآن الكريم فقـــال: "ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصـــدقت بكلمـــات ربها وكتبه وكانت من القانتين[1]"؛ وكيدهن فقال: "قال رب السجن أحبّ إلـــيَّ ممـــا يدعونني إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصبَ إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم[2]". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن: "استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان[3]عندكم".

وجاء في الأثر: "النظر إلى الوجه الحسن يجلو البصر، والنظر إلى الوجه القبيح يُورِثُ الفلج[4]". ورُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مِنْ عشق فعفَّ فمات فهو شهيد[5]"، وقال صلى الله عليـــه وسلم: "إن من البيان لسحرا[6]".

وقيل أن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس وهو يسوق أربعة أحمـــرة عليها أحمال، فسأله فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين.

فقال: ما أحدها؟

قال: الجور[7].

قال: مَنْ يشتريه؟

---

[1]- سورة التحريم، الآية (١٢).

[2]- سورة يوسف، الآيات (٣٣-٣٤).

[3]- عوان: أي أسيرات عندكم.

[4]- الفلج: نوع من الشلل. أنظر أخبار النساء لابن الجوزي ص٢٤.

[5]- ذكره الشوكاني في "الفوائد المجموعة" ص٢٥٥، الحديث رقم ١١٤.

[6]- أخرجه أحمد في "المسند" ج١ ص ٣٠٩.

[7]- الجور: الظلم.

قال: السلاطين.

قال: ما الثاني؟

قال: الحسد.

قال: فمنْ يشتريه؟

قال: العلماء.

قال: فما الثالث؟

قال: الخيانة.

قال: فمنْ يشتريها؟

قال: التجار.

قال: فما الرابع؟

قال: الكيد.

قال: فمن يشتريه؟

قال: النساء[٨].

ورصد فحول الأدباء من أمثال ابن عبد ربه في كتابه "العقد الفريد"، والأصفهاني في "الأغاني"، وابن القيم الجوزي في "أخبار النساء"، وابن طيفور في "بلاغات النساء"، والمسعودى في "مروج الذهب"، والثعالبي في "فقه اللغة وأسرار العربية"، والأبشيهي في "المستطرف"، وابن قتيبة في "عيون الأخبار"، وغيرهم من الأدباء حياة المرأة، فسجلوا حلوها ومرها، ودوّنوا طرائف النساء وبلاغتهن، وفائهن وغدرهن، عفتهن وعشقهن، ووصفوا حُسْنهن وجمالهن، وساقوا في ذلك القصص والحكايات والأخبار في كتبهم.

ولأن كل كتاب من هذه الكتب اشتمل على مواقف معينة من حياة المرأة دون غيرها، ولم يضم أيًّا منها بين ضفتيه هذه المواقف مجتمعة في كتاب، فقد رأيت أن أقوم بجمع شتات ما كتبه أساطين الأدب العربي من العصر الجاهلي إلى

---

[٨]- المستطرف ج٢ ص ٣٥٤ – ٣٥٥.

العصر الفاطمي والمملوكي في سلسلة واحدة متحرياً فيما كتبت دقة النقل، وإيضاح المعاني الخفية والغريبة من ألفاظ اللغة، ومترجماً لكثير من أعلام الرجال والنساء الوارد ذكرهم في كتب السلسلة، ومراعياً أيضاً حذف ما يخدش الحياء من ألفاظ، وما يثير الغلمة[9] من عبارات. ومن ثمَّ لم أُورد القصص التي تحتوى على وصف فاضح للمرأة كوصف الشاعر النابغة الذبياني "للمتجردة" امرأة النعمان بن المنذر في كتاب "العقد الفريد".

وقد قسمت هذه السلسلة إلى أربعة كتب ضمّنت كل كتاب منها أبواباً متناسقة ومتجانسة مع بعضها البعض، وذكرت فيها جميعاً قصصاً وحكايات وأخباراً وأقوالا ونوادر لعبت المرأة فيها إلى جانب الرجل دوراً رئيسياً، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بعواطف المرأة والرجل لأن كلاً منهما مكمل للآخر، وتوخيت أن أختار من كل ذلك ما فيه المتعة والفائدة قدر الإمكان.

يتضمن الكتاب الأول ستة أبواب تنم عناوينها على مضمونها، فالباب الأول في "وصف المرأة" ويشمل ما قيل في أوصاف المرأة المحمودة، وشرار النساء، وأنواع النساء، والحُسْن والجمال في المرأة... فقد أحبَّ العرب الجمال لأنهم يحسون بالحلاوة والعذوبة إحساساً غامضاً لا يقيده قيود ولا تحصره حدود كسواهم من الشعوب التي أُغرمت بالجمال، واتفقوا على أصول معينة للجمال تعارفوا عليها وألحقوا بالأصول فروعاً تتفق وأذواق الأفراد، فلا يكتمل مصنف من كتب الأدب ما لم يضم بين دفتيه شعراً أو نثراً، مقتبساً من أساطين الأدب، أو منقولاً عن الاختصاصيين في فنون الجمال الذين خبروه نظرياً وعملياً، وأدركوا مدى كل صفة من الصفات وميزة من الميزات[10]. ونحن في هذا الباب ندخل الخِدر[11] العربي ونتفحص هذه المرأة عن كثب[12]، نتبين تقاسيم الجمال فيها. والباب الثاني في "غيرة

---

[9]- الغلمة: الشهوة.

[10]- انظر كتاب "الجواري" للدكتور جبور عبد النور.

[11]- الخِدر: الستر.

[12]- عن كثب: عن قرب.

المرأة"؛ وما أكثر القصص التي تُروى في ذلك كغيرة الضرائر! والباب الثالث في "وفاء المرأة"؛ ويحوى كل قصص النساء اللاتي حفظن عهدهن بالوفاء وأغرب القصص التي رُويت في ذلك كوفاء الضرائر. وعلى نقيض ذلك كان موضوع الباب الرابع في "النساء اللاتي نقضن العهد بالوفاء"؛ وهن نساء لم تتمكن من الوفاء بعهودهن لأزواجهن لسبب أو لآخر. وأنهيت الكتاب الأول بباب في "غدر النساء" ، وباب في "كيد النساء"؛ وهما بابان مترابطان معاً، وقد رأيت أن أفصل بينهما لما يتضمنه باب الكيد من حيل ومكائد لا تخطر على قلوب أولى الألباب من الرجال؛ ولكن تلك هي المرأة.

ويتضمن الكتاب الثاني باباً في "عفة المرأة" وباباً في عشقهن بعنوان "نساء عاشقات". وقد اكتفيت بهما لما ذكرت من قصص العفاف، وحكايات الحُب العفيف أو الحُب العذري عند العرب، وهو حبٌّ أُغرم به العربي بعيداً عن شهوة الجسد ومفاتن المرأة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على سمو الرجل العربي بخلاف الافتراءات التي يُرمى بها. وسردت في هذا الباب قصصاً كثيرة تكشف عن أعماق النفس الإنسانية عند الرجل والمرأة معاً، والتي حدَّ المجتمع وتقاليده في أحيان كثيرة من ظهورها بشكلٍ واضحٍ وجلي نظراً للفروقات الطبقية وللمقامات المؤثرة وللحدود الشرعية التي تفرض على العشاق قيوداً لا يمكن تجاوزها. وبدأت الباب بمقدمة مفصلة عن العشق وما قيل في الهوى والجوى ونبذة عن قبيلة بنى عذرة التي اشتهرت بالحبّ العذري وعُرف باسمها، ورويت أشهر قصص العشاق من أمثال: بثينة وجميل، عزَّة وكُثَيِّر، فوز والعباس ابن الأحنف، ليلى العامرية والمجنون، ليلى الأخيلية وتوبة بن الحمير، ليلى والصحصاح، لبنى وغانم، مي ومضاض ، سلامة الزرقاء والقس، ريا وعمرو بن عود، ريا وعتبة بن الحباب، عقيلة وعمرو بن كعب، عنتر وعبلة، عفراء وعروة، أسماء والمرقش الأكبر، صفوة وإياس، أمّ البنين ووضَّاح اليمن، محبوبة والمتوكل، حبابة وعبد الملك بن مروان، وعنونت كل قصة بأسماء طرفيها إن ذكراً في كتب الأدب، أما باقي

القصص فعنونتها بألفاظ أو عبارات وردت بها، شأنها في ذلك شأن القصص التـــي ذُكرت في جميع أبواب السلسلة، وأنهيت هذا الباب بقصص العشق الإلهي.

والمرأة على امتداد تاريخ العرب كم أثارت من فتنة، وكم أشعلت من حرب ضروس أُريقت بها دماء وأزهقت أرواح، وكم ساهمت في بناء وتعمير وتشييد أو هدم وتدمير وخراب صروح، وكم سادت من حضارات أو بادت بسبب منها، وكـــم هدمت من صوامع وبِيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، وكـــم مـــن خليفة انشغل عن أمور الخلافة بجارية أخذت بعقله وسيطرت على تفكيـــره حتـــى مات كمدا عليها، وكم نظمت من الشعر وخاضت بحوره، وكم نطق لسانها بعبارات البلاغة والفصاحة والبيان... تلك الأدوار التي لعبتها المرأة هي موضـــوع البـــاب الأول من الكتاب الثالث، وبلاغتهن هي موضوع الباب الثاني منه.

وأنهيت هذه السلسلة بكتاب يتناول طرائف النساء والجواري والأعرابيات ... حكايات ممتعة ومواقف نادرة، ولطائف ندية خفيفة الدم والروح، تـــروِّح عـــن قلب الإنسان وتخفف عنه متاعب الحياة وهموم الدنيا... نوادر في الحُسْن والجمال، والقبح، والدمامة، والزواج، والجماع، والطلاق، والبخـــل، والمأكـــل والمـــشرب، ونوادر تنم عن ذكاء المرأة وخفة دمها. ويعد هذا الكتاب بداية لسلسلة جديـــدة لنـــا بعنوان "النوادر والطرائف والظرفاء" سوف يتم نشرها عقب هذه السلسلة إن شـــاء الله.

والجدير بالذكر أنني لم أتعرض من قريب أو من بعيد لنساء النبي صلى الله عليه وسلم، فهن أمهات المؤمنين وأطهر وأجلّ وأعظم من أن أضعهن جنبـــاً إلـــى جنب مع غيرهن من النساء، وحقهن إن أراد كاتبُ أن يخط بيمينه شيئاً من ذكرهن أن يخصص لهن كتاباً أو كتباً بذاتها.

وتبقى المرأة هي المرأة، مخلوقاً له عالمه الخاص، وتراثاً كاملاً من القـــيم الإنسانية، وسلسلة متصلة الحلقات من مشاعر الحبّ والعشق وعواطف الإعراض والصد والجفاء أو عواطف الإقبال والوفاء، ووجهاً من وجوه الحيـــاة والمـــصير،

ودنيا مليئة بالوعي وزاخرة بالمشاعر، سلوة الرجل، وغذاءه الروحي والجسدي، ونصفه الذي لا يكتمل بدونه، بقربها تصفو الحياة ويصلح العمر.

إنَّ هذه السلسلة جهدٌ متواضعٌ أضعها بين يدي القارئ الكريم راجياً أن يجد فيها المتعة والفائدة المرجوة.

والله من وراء القصد ،،،،،

إيهاب زريق

الباب الأول

مواقف المرأة

أما الآن فنعم!

*وحكى عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان:

أترى أني أخطب إلى أحد فيردني؟

قال: نعم.

قال: ومن هو؟

قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي.

قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة في بلاده فوجدناه في فناء منزله، فلما رأى الحرث بن عوف قال: مرحبا بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟

قال: جئت خاطبا.

قال: لست هناك، فانصرف ولم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مغضبا.

فقالت له: من الرجل الذي سلّم عليك فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟

فقال: ذلك سيد العرب الحرث بن عوف.

فقالت: فما لك لا تستنزله.

قال: إنه استهجنني.

قالت: وكيف؟

قال: لأنه جاءني خاطبا.

قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب؟

قال: نعم.

قالت: إذا لم تزوِّج سيد العرب في زمانه فمنْ تزوِّج؟

قال: قد كان ذلك.

قالت: فتدارك ما كان منك.

قال: فماذا؟

قالت: بأن تلحقه فترده.

قال: وكيف وقد فرط مني إليه ما فرط.

قالت: تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة لما فرط مني فارجع ولك عندي كل ما طلبت.

قال: فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت مني إلتفاتة فرأيته فقلت للحرث وهو ما يكلمني: هذا أوس في أثرنا.

فقال: ما أصنع به، فلما رآنا لا نقف قال: ي حارث أربع عليَّ، فوقفنا له وكلمه بذلك الكلام، فرجع مسرورا.

قال خارجة بن سنان: فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادعي لي فلانة أكبر بناته، فأتته: فقال لها: أي بنية، هذا الحرث بن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطبا وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين؟

قالت: لا تفعل.

قال: ولِمَ؟

قالت: لأن في خلقي رداءة، وفي لساني حدة، ولست بابنة عمه فيراعي رحمي، ولا هو بجار لك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليَّ بذلك مسبة.

قال لها: قومي بارك الله فيك، ثم دعا بنته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها، فأجابت بمثل جوابها فقال لها: قومي بارك الله فيك. ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهن سنا فقال لها مثل ما قال لأختيها.

فقالت له: أنت وذاك.

فقال لها: إني عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ولم يذكر لها مقالتهما.

فقالت له: والله إني الجميلة وجها، الرفيعة خُلقا، الحسنة رأيا، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه.

فقال لها: بارك الله فيك، ثم خرج إليه، فقال: زوجتك يا حارث بابنتي هنيسة.

قال: قد قبلت نكاحها. وأمر أمها أن تهيئها له وتصلح شأنها، ثم أمر ببيــت فضُرب له وأنزله إياه، ثم بعثها إليه. فلما دخلت عليه لبست هنيهة ثم خــرج إلــيَّ فقلت له: أفرغت من شأنك؟

قال: لا والله.

قلت: وكيف ذلك؟

قال: لمَّا مددت يدي إليها قالت: مه أعند أبي واخوتي هذا، والله لا يكــون، ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا، وسرنا ما شاء الله ثم قال لي: تقدم فتقدمت، فعدل عن الطريق، فما لبث أن لحقني، فقلت: أفرغت من شأنك؟

قال: لا والله.

قلت: ولِمَ؟

قال: قالت: تفعل بي كما يُفعل بالأمة السبية الأخيذة. لا والله حتــى تنحــر الجزر والغنم وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي.

فقلت: والله أني لأرى همة وعقلا.

فقال: صدقت.

قال: وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة. فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبــل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إليَّ.

فقلت: أفرغت من شأنك؟

قال: ولِمَ ذاك؟

قال الحارث: دخلت عليها أريدها فقلت لها: قد أحضرنا المال كما ترين..

فقالت: والله لقد ذُكر لي من الشرف ما لا أراه فيك.

قلت: وكيف؟

قالت: أتفرغ للزواج والعرب تقتل بعضها بعضا؟ – وذلك في أيام حــرب عبس وذبيان[1]– قلت: فتقولين ماذا؟

---

[1]– هي الحرب الشهيرة بحرب (داحس والغبراء) وهما فرسان أحدهما يملكه قــيس بــن زهيــر

قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك.

فقال أوس (أبوها): إني والله لأرى عقلا وهمة ولقد قالت قولا.

وخرجوا حتى أتوا القوم ومشوا فيما بينهم بالصلح. فاصطلحوا على أن يحتبسوا القتلى ثم يُؤخذ الفضل ممن هو عليه وحملوا عنهم الديات– وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين وانصرفوا بأجمل الذكر، ثم دخل على زوجته فقالت له: أما الآن فنعم[1].

أنا امرأته

*ذكر ابن عبد ربه في (العقد الفريد) قال:

لم يلبث بنو كنانة (رهط ربيعة بن مكدوم) أن أغارت على بنى جشم (رهط دُريد بن الصَّمَّة) في يوم الوادي من حرب داحس والغبراء فقتلوا (وأسروا وغنموا) وأسروا دريد بن الصمة فأخفى نسبَه. فبينما هو عندهم محبوس إذ جاءت نسوة يتهاوين إليه، فصاحت إحداهن فقالت: هلكتم وأهلكتم ماذا جرَّ علينا قومنا، هذا والله الذي أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة! ثم ألقت عليه ثوبها، وقالت: يا آل فراس أنا جارة له منكم، هذا صاحبنا يوم الوادي، فسألوه: من هو؟ فقال: أنا دريد بن الصَّمَّة، فمن صاحبي؟ قالوا: ربيعةُ بن مكدوم. قال: فما فعل؟ قالوا: قتله بنى سليم. قال: فما فعلت الظعينةُ؟[2]. قالت المرأة: أنا هي وأنا امرأته. فحبسه القوم وآمروا أنفسهم، فقال بعضهم: لا ينبغي لدريد أن تُكفَر نعمته على صاحبنا، وقال الآخرون: لا والله

العبسي والثانية يملكها حذيفة بن بدر الغزاوي وقد تراهنا في سباق بين الفرسين على مائة ناقة للفائز ولجأ أخو حذيفة لتدبير فخ فأمر بعض الفتيان أن يلطموا داحس إذا جاء سابقا فكبا، وسبقت الغبراء ودبَّ النزاع بين القوم وقتل قيس بن حذيفة وقتل حذيفة مالكا أخا قيس واندلعت الحرب بينهما.

[1]– المستطرف ج ٢ ص ٣٤٨ – ٣٥٠.

[2] – الظعينة: الزوجة.

لا يخرج من أيدينا إلا برضا المخارق الذي أسره، فانبعثت المرأة في الليل – وهي ريطة بنت جزل الطعان– فقالت:

سنُجْزى دُرَيْداً عن ربيعة نعمة / وكلُّ امرئ يُجزى بما كان قدَّما
فإن كان خيرا كان خيرا جزاؤه / وإن كان شرا كان شرا مُذَمَّما
سنجزيه نُعمى لم تكن بصغيرة / باهدائه الرمحَ الطويل المقوّما
فلا تكفُرُوه حقَّ نُعماهُ فيكُمُ / ولا تركبوا تلك التي تملأُ الفما
فإن كان حياً لم يَضِقْ بثوابه / ذراعا، غنيا كان أو مُعْدَما
ففُكوا دُرَيْداً من إسارِ مخارق / ولا تجعلوا البؤسى إلى الشرِّ سُلما

فلما أصبحوا أطلقوه، فكسْته وجهزتْه، ولحق بقومه، فلم يزلْ كافاً عن حرب بنى فراس حتى هلك.

إن القول ما قالت حذام

*كانت حذام بنت الريان امرأة لُجَيم بن مصعب والد حنيفة وعجل. ويروى عطاس بن خلاج سار إلى الريان أبى حذام في حِمْير وخثعم وجعفر وهمدان فلقيهم الريان في أربعة عشر حيا من أحياء اليمن. فاقتتلوا قتالا شديدا ثم تحاجزوا. وخرج الريان وأصحابه هربا فساروا يومهم وليلتهم ثم عسكروا. فأصبح عاطس، فغدا لقتالهم فإذا الأرض منهم بلا وقع[1]، فجرَّد خيله وحثَّ في الطلب، فانتهوا إلى عسكر الريان ليلا، فلما كانوا قريبا منه أثاروا القطا[2]، فمرّت بأصحاب الريان فخرجت حذام إلى قومها فقالت:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا / فلو تُرِك القطا ليلا لناما

---

[1]- البلقع: الأرض والقفر.

[2]- القطا: طيور بحجم الحمام – مفردها قطاة – ويُقال "أهدى من القطا".

أي أن القطا لو تُرك ما طار هذه الساعة وقد أتاكم القوم فلم يلتفتــوا إلــى قولها، وأخلدوا إلى المضاجع لما نالهم من التعب. فقام ديسم بن طارق وقال بصوت عال:

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القولَ ما قالت حذام

وثار القوم فلجأوا إلى واد كان قريبا منهم فانحــاذوا بــه حتــى أصــبحوا وامتنعوا منهم[1].

زرقاء اليمامة

*بعد أن فتكت جديسُ[2] بطسْمٍ[3] هرب رجل من طسم اسمه رباح بن مــرّة الطسمي، فأتى إلى حسّان بن تُبع الحميري، ملك اليمن يومئذ، فاستعان به فأعانه، وخرج بفرسانه يريد جديس حتى إذا صاروا من اليمامة على ثلاث قال رباح بــن مرّة للملك حسّان: أبيت اللعن، إنّ لي أختا متزوجة في جديس لــيس فــي الأرض أبصر منها، إنها تبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليال وأنا أخاف أن تنــذر القــوم بك، فتأمر كل واحد من أصحابك أن يقتلع شجرة من الأرض فيجعلها أمامــه ثــم يسير فأمرهم حسّان بذلك ففعلوا ثم ساروا. وكان اسم أخت رباح "يمامة " بنت مرّة فأشرفت من منظرها فقالت: يا جديس، لقد سارت إليكم الشجر، قالوا لها: وما ذاك؟ قالت: أرى أشجارا تسير ووراءها شيء، وإني لأرى رجلا من وراء شجرة ينهش كتفا أو يخصف نعلا، فكذبوها، وكان ذلك كما ذكرت، فغفلوا عن أخذ أهبّة الحرب، ففي ذلك تقول اليمامة لجديس تحذرهم:

إني أرى شجرا من خلفها بشرٌ فكيف تجتمع الأشجار والبشر؟

ثوروا بأجمعكم في وجه أوّلهمْ فإن ذلك منكم، فاعلموا، ظفرُ

---

[1] – المرجع السابق.

[2] – هم قوم جديس بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، نزلوا اليمامة.

[3] – هم قوم طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، نزلوا البحرين.

وأقبل الملك حسّان بحمير، حتى إذا كان من جو[1] على مسيرة ليلـــة، عبّـــأ جيشه ثم صبحها[2]، فاستباح أهلها من جديس قتلا، فأفناهم وسبى نساءهم وصبيانهم، وهرب الأسود بن غفار ملكها حتى نزل بدار طيء، فأجاره من الملك وغيره مـــن غير أن يعرفوه، فيُذكر أن نسله اليوم في طيء مذكور.

فلما فرغ حسّان من جديس دعا باليمامة بنت مرّة وكانت امـــرأة زرقـــاء، فأمر فنزعت عيناها فإذا هي في داخلها عروق سود، فسألها عن ذلك فقالت: حجر أسود يُقال له الإثمد كنت أكتحل به فنشب إلى بصري، وكانت هي أول من اكتحل به، فاتخذوه بعد ذلك كحلا، وأمر الملك باليمامة فصُلِبت على باب جو وقال: سمّوا جواً باليمامة، فسُميت به إلى اليوم[3].

وقالوا في خبرها: أن هندا بنت النعمان بن المنذر كانت تهـــوى زرقـــاء اليمامة، وأنها أول امرأة أحبّت امرأة في العرب، وعندما بلغها خبر الزرقاء ترهبت ولبست المسوح وبَنت ديرا يُعرف بدير هند إلى الآن، فأقامت فيه حتى ماتت.

إنا بالله وبك

*اندلعت "حرب الفجار" بين قبيلة قيس وقبيلة كنانة، وخرجت سبيعة بنـــت عبد شمس بن عبد مناف مع زوجها مسعود تنصب لها خيمة خلف جنـــده، وحـــين دخل عليها رآها تبكي فقال لها مخففا عنها بعض آلامها: ما يبكيك؟ قالت: أبكي لما عسى أن يصيب قومي؟ فقال لها زوجها: من دخل خباءك من قريش فهو آمن..

وما انقضت ساعات المعركة حتى غُلب مسعود بن مالك زوجها على أمره واندفع إلى خيمة سبيعة يستجير بها قائلا: إنا بالله وبك. فقالت: زعمت أنك ســـتملأ بيتي من أسرى قومي، اجلس فأنت آمن.

---

[1]- جو: اليمامة قديما.

[2]- صبحها :أغار عليها في الصباح.

[3]- مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٥١ – ١٥٣.

وهرع الرجال كذلك من قبيلة قبس إلى خيمة سبيعة يستجيرون بها بعد أن أجار حرب بن أمية بها جيرانها وقال لها: يا عمة من تمسك بأجناب خيمتك أو دار حولها فهو آمن. فنادت سبيعة بذلك حتى ضاق المكان بالرجال المستجيرين، بل كان يكفي لأي رجل أن يعقد رداءه بحبل خيمتها أو سرادقها أو أي شيء يمت إليها ليصبح آمنا. وكان لهذا الموقف العظيم الأثر البالغ في حقن دماء آلاف الرجال في "حرب الفجار" وقد سمى هذا المكان منذ ذلك اليوم "بمدار قيس".

عينُ الله تحرسها

*حلَّ القحطُ وشمل الجدب والغلاء، وضاقت سُبل العيش في الشام، فرحل إبراهيم عليه السلام إلى مصر تصحبه زوجته سارة وهبط أرضها حين كان القابض على زمامها والمسيطر على أمورها أحد الملوك العرب العمالقة، الذين استبدوا بالملك آونة من الدهر.

وكانت سارة ذات جمال فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك وأغراه بجمالها وزيَّن له حُسْنها وحبّب إليه الاستحواذ عليها. فصادفت هذه المقالة رغبة في نفسه، وهوى في فؤاده، فدعا إبراهيم إليه، وسأله عما يربطهما من سبب وما يصل بينهما من قرابة. ففطن إبراهيم إلى مآربه، وعرف مقصده، وخاف إن أخبره أنها زوجته بيَّت الشرَ له، وعمل على الإيقاع به لتخلص له يستأثر بها من بعده، فقال له: هي أختي.

فهم الملك أنها ليست بذات بعل، فأمر أن يذهبوا بها إلى قصره، ويسوقها إلى مخدعه، ورجع إبراهيم إلى زوجته فأخبرها بقصته، وطلب منها أن تكون مصدقة لقوله، مؤكدة لخبره. ثم أسلمها لعين الله تحرسها وعناية الله ترعاها وتحفظها. وأُدخلت إلى قصر الملك، وزُينت بأفخر الثياب، وأثمن الحلي، ولكنها لم تأبه بهذا الزخرف البراق، ولا بذاك البذخ الخلاب، ولم تعن بما أُحيطت به من نعمة، وما رأت من سعة السلطان وبسطة العيش، ولم ينسها كل ذلك الوفاء لزوجها والاستمساك بدينها، وجلست مكتئبة حزينة، وانتبذت مكانا قصيا.

ولمّا أقبل الملك عليها، ورأى ما بها من لوعة وأسى، حاول أن يخفف من حزنها، ويؤنس وحشتها، ويزيل اكتئابها، فجفلت، وانتكس الملك يحس اضطرابا في نفسه، ووجيبا في قلبه، وأراد أن يعيد الكَرة، فعاد إليه اضطرابه وعاوده انتكاسه، فأوجس ذلك في نفسه خيفة منها، وأوى إلى فراشه وغطّ في نومه، ورأى رؤية استبان بها وجه الحق، وتبين منها سبيل الرشد، وعرف أن لها بعلا وأن عليه أن يخلى سبيلها، ويتركها وشأنها ولا يمسها بسوء أو يقربها بإثم. فلما أفاق من نومه رأى أن لا مناص[1] من إطلاق سراحها، فوهبها هاجر خادمة لها، وأسلمها إلى زوجها[2].

إن عدوة الله غيري

*كانت أم شريك، غزية بنت جابر بن حكيم، إحدى نساء قريش، من ربات الإحسان والثراء، قد شرح الله صدرها للإسلام، فكانت تدخل على نساء قريش وتدعوهن للإسلام حتى ظهر أمرها لسادات قريش، فقال أبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وغيرهما: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا ولكن سنتردك إليهم.

ولمّا هاجر زوجها أبو العسكر الدوسي وأبو هريرة عبد الرحمن بن صخر عقب فتح خيْبر إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء أهل أبى العسكر إلى أم شريك وقالوا لها: لعلك على دينه؟

فقالوا: لا جرم والله لنعذبنك عذابا شديدا. وارتحلوا بها من دارها وكانت بذي الخلصة يريدون موضعا[3] وحملوها على شر ركابهم جمل ثقال ليس تحتها شيء وراحوا يطعمونها الخبز بالعسل ولا يسقونها قطرة من ماء حتى أنتصف النهار وسخنت الشمس وهم قائظون، فنزلوا وضربوا خيامهم وتركوها في الشمس حتى كاد أن يذهب عقلها وسمعها وبصرها.

---

[1] –لامناص: لا مفر.

[2]– شهيرات نساء العرب والإسلام ص ١٥ – ١٦ مع بعض التصرف.

[3]– موضعا: منزلا.

تقول أم شريك: فعلوا ذلك بي ثلاثة أيام، وقالوا لها في اليوم الثالث: أتركي ما أنت عليه؟ فلم تدرى ما تقول إلا الكلمة بعد الكلمة وتشير بإصبعها إلى السماء: أحدٌ أحدٌ! وبينما هي على ذلك وقد بلغ بها الجهد والعطش مبلغا عظيما إذ وجدت برد دلو على صدرها ما هذا؟ أين جاء؟ فمدت إليه يدها في لهفة وأخذته فشربت منه نفسا واحدا ثم أنتزع منها، أين ذهب؟ تلفتت حولها وذهبت تنظر فإذا هو معلق بين السماء والأرض فلم تقدر عليه..... ثم دلى إليها ثانية فشربت منه نفسا ثم رفع فذهبت تنظر فإذا هو بين السماء والأرض ثم دلى إليها الثالثة فشربت منه حتى رويت وأهرقت على رأسها ووجهها وثيابها. ولمّا خرج القوم من خيامهم واقتربوا منها رأوا الماء فقالوا: من أين لك هذا يا عدوة الله؟ فقالت أم شريك في لهجة الواثق بالله: إن عدوة الله غيرى، من خالف دينه، وأما قولكم من هذا؟ فمن عند الله رزقا رزقنيه الله. فقالوا في سخرية: ما علمنا أن الله قد رزق أحدا. فقالت غزية بنت جابر: ألم يرزق مريم بنت عمران من قبل (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا* قال يا مريم أنّى لك هذا* قالت هو من عند الله* إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)[1]. فقالوا: دعوها فقد نالت منها الشمس وصارت تخرف، وانطلقوا سراعا إلى قربهم فوجدوها موكاة[2] لم تُحل.. فنظر بعضهم إلى بعض في عجب . ثم قالوا: نشهد أن ربك هو ربنا وأن الذي رزقك في هذا الموضع بعد أن فعلنا بك ما فعلنا هو الذي شرع الإسلام.

وشرح الله عز وجل صدورهم للإسلام فهاجروا جميعا إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

---

[1]- سورة آل عمران، الآية (٣٧).

٣- موكاة: مربوطة.

١- نساء نزل فيهن قرآن ص ٥٩-٦٠.

في سبيل الدين

*جاء في ذِكر أم كلثوم بنت عقبة بن معيط بن أبى أبان بن عبد شمس بن مناف أنها أسلمت بمكة بعد صلح الحديبية بين المسلمين ومشركي قريش، وكانــت أول من هاجر من النساء، ولم تبلغ جرأة فتاة من قريش كما بلغتها أم كلثــوم فــي سبيل دينها، ولا يُعرف قريشية خرجت من بيت أبويها مسلمة مهاجرة سواها.

ظلت أم كلثوم أياما تخفي إسلامها وتتحين الفرصة لتهــاجر إلــى مدينــة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعد العدة لها. وذات يوم رأت رجلا مــن قبيلــة خزاعة قد ظفر به رجال من قريش، فراحوا يصبون على جسده ألوان من العــذاب لأنه صبا واتبع محمد صلى الله عليه وسلم. فلقيت أم كلثوم ذلك الخزاعي المــسلم وقالت، وهي تنظر حولها حتى لا يراها أحد: لماذا تقيم على هذا الضيم[1]؟ هل يأمر الإسلام بهذا؟ فقال الخزاعي: لا، ولكن لا أجد زادا ولا راحلة فأنطلق بهــا إلــى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سألها الرجل: هل أنت مــسلمة؟ فهــزت رأسها وقالت: أجل ولسوف أعطيك ثمن راحلة تهاجر بها على أن تصحبني إلــى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ففاض وجه الخزاعي بالبشر ثــم تــساءل: الموعد؟ قالت أم كلثوم: غدا عند التنعيم[2] بعد الغروب. ونهــضت أم كلثــوم مــع خيوط الفجر، وأخذت تجهز الزاد والطعام دون أن يلحظها أخواها الوليد وعمــارة. ولمّا غربت الشمس ركبت الناقة ووجدت الخزاعي في انتظارها ممتطيا ناقته فتقدم وسارت وراءه حتى بلغ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وانطلق الوليد وعمارة في أثر أم كلثوم فقدما المدينة ثاني يــوم قــدومها، وتقدما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقولا له: أوفِ لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه، فأسرعت أم كلثوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله أنــا امــرأة

[1] – الضيم: العذاب والهوان.

[2]– التنعيم: مكان في مكة، ويوجد به مسجد التنعيم حاليا.

وحال النساء إلى الضعف فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي. ولكن الوليد وعمارة قالا: يا محمد لا بد من الوفاء بما عاهدتنا عليه.

فنزل قوله تعالى: (يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتوهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لا هن حلٌ لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا أتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم)[١].

فامتحن رسولُ الله أم كلثوم وامتحن النساء من بعدها، فقال: (ما أخرجك إلا حبّ الله ورسوله والإسلام لا حبّ زوج ولا مال)، فقالت: ما أخرجني إلا حبّ الله ورسوله والإسلام لا حبّ زوج ولا مال. ثم التفت إلى الوليد وعمارة قائلا: (قد أبطل الله العهد في النساء بما قد علمناه فانصرفا).

أعطني السيف

*أسلمت صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل الهجرة وهاجرت إلى المدينة. ويوم أُحد[٢]، رأت المسلمين يتراجعون فتقدمت، وبيدها رمح تضرب في وجوه الناس وتقول: أإنهزمتم عن رسول الله؛ فأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى الزبير بن العوام أن يبعدها عن أخيها حمزة (وكان قد بُقر بطنه فكره رسول الله أن تراه)، فناداها الزبير أن تتنحى فزجرته وأقبلت حتى رأت أخاها. ولها مراث رقيقة وفي شعرها جودة، ماتت في المدينة المنورة عام ٢٠هـ.

وقال ابن إسحق، حدثني يحي بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: كانت صفية بنت عبد لمطلب في فارع حصن حسان بن ثابت[٣] (يعنى يوم الخندق).

---

[١]- سورة الممتحنة، الآية (١٠).

[٢]- موقعة أُحد بين المسلمين بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبيلة قريش.

[٣]- حسان بن ثابت: شاعر قبل الإسلام في جاهليته يعبر عن حوادثها ويصف معارك قومه ويفتخر بها. واستمر شاعرا بعد الإسلام ملازما للرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة. يصف غزواتهم ويتغنى ببطولاتهم ويزدرى الكفر وأهله حتى عُد شاعر الإسلام الأول والذاب عن

قالت: وكان حسان معنا فيه والنساء والصبيان قالت: فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسـول الله، لـيس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله والمسلمون في نحورهم عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنا إلينا عنهم إذ أتانا آت. قالت: فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنُه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود، وقد شُغل عنا رسول الله وأصحابه. فانزل إليه فاقتله. قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت: فلما قال ذلك ولم أر عنده شـيئا احتجزت[1] ثم أخذت عمودا ثم نزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلتـه. قالت: فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان أنزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. قال: ما لي بسلبه من حاجه يا بنت عبد المطلـب[2]. وفي رواية أخرى قال ابن الزبير: وجاء يهودي يرتقى إلى الحصن فقالت صفيه له: أعطني السيف، فأعطاها فلما ارتقى اليهودي ضربته حتى قتلته.

اغتصاب

*عن عبد الله بن صالح قال: حدثني الليث قال:

وجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتيلا ملقى على قارعـة الطريـق، فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل فـشق ذلـك عليه وقال: اللهم ظفرني بقاتله.

حتى إذا رأس الحول –أي بعد سنة– وجد مولودا مُلقى بموضـع القتيـل فأتى به عمر رحمة الله عليه فقال: ظفرت بدم المقتول إن شاء الله. ودفع الغلام إلى

عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما اشتهر بالجبن وغلب على طبعه، فلم يشارك فـي أي من غزواته صلى الله عليه وسلم بل ظل يتابعها من بُعْد ومن وراء الحصون.

[1]- احتجزت: شددت وسطي.

[2]-سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٢٨.

امرأة وقال لها: قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك، فإذا وجـــدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلميني بمكانها.

فلمّا شبَّ الصبي، جاءت جارية فقالت للمرأة: إن سيدتي بعثتني إليك لتبعثي بالصبي لتراه وترده إليك. قالت: نعم اذهبي به إليها وأنا معك، فـذهبت بالــصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها. فلمّا رأته أخذته فقبلته وضمته إليها وإذا هي بنت شيخ من الأنصار من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فأخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل إلى منزلها فوجد أباها متكئا على باب داره فقال: يا أبا فلان ما فعلت ابنتك فلانة.

قال: يا أمير المؤمنين جزاها الله خيرا هي من أعرف النـاس بحـق الله تعالى وحق أبيها مع حُسْن صلاتها وصياما والقيام بدينها.

فقال عمر: قد أحببت أن أدخل عليها فأزيدها رغبة في الخير وأحثها على ذلك.

فقال الشيخ: جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين.

فقال له: امكث مكانك حتى ارجع إليك.

فاستأذن عمر عليها، فلمّا دخل أمر عمر كل من كان عنـدها بـالخروج، فخرجوا، وبقيت هي وعمر في البيت ليس معهما أحدا فكشف عمر عـن الـسيف فقال: لتصدقني –وكان عمر لا يكذب.

فقالت: على رسْلك يا أمير المؤمنين فو الله لأصدقن.. إن عجـوزا كانـت تدخل عليَّ فاتخذتها أُما، وكانت تقوم من أمري بما تقوم به الوالـدة، وكنـت لهـا بمنزلة البنت. فأمضت بذلك حينا حتى جاء يوم قالت لي فيه: يا بنية إنه قد عرض عليَّ سفر ولي بنت في موضع أتخوف عليها فيه أن تضيع، وأريد أن أضمها إليك حتى أرجع من سفري. فعمدت إلى ابن لها كان شابا أمردا، فهيَّأته كهيئة الجاريـة وأتتني به وأنا لا أشك أنه جارية. فكان يرى مني ما ترى الجارية حتى أغتفلنـي يوما وأنا نائمة، فما شعرت حتى علاني وخالطني، فممدت يدي إلى شـفرة كانـت

بجانبي فقتلته. ثم أمرت به فأُلقى حيث رأيت فولدت منه هذا الغلام. فلمّا وضـــعته ألقيته في موضع أبيه، فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك.

فقال لها عمر: صدقت بارك الله فيك، ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج من عندها، وقال لأبيها: بارك الله في ابنتك، فنِعم الابنة ابنتك وقد وعظتها وأمرتها. فقال الشيخ: وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيرا عن رعيتك[1].

الفارس المقنع

* كان ضرّار بن الأزوز بطلا من أبطال المعارك الإســلامية فــي بــلاد الشام[2]، وكان يُلقب بالفارس عاري الصدر لأنه كان يخلع سترته عندما يــشتد أوار الحرب فيدب الرعب في أوصال أعدائه حتى انتشرت القصص عنه وذاعت في كل أرجاء الشام وخشي الأعداء منازلته.

وفي إحدى المعارك بينما كان ضرار يهاجم بعنف أمام رجالــه، تعــرَّف عليه فرسان الروم وصاحوا: "ها هو البطل عاري الصدر". وقرروا أن يأخذوه حيا إلى إمبراطورهم ويقدموه كهدية له، فكثيرا ما سمع عن بطولاته.

وعندما أصيب ضرار بسهم في ذراعه الأيمن وتغلّب عليه الروم أخــذوه إلى المؤخرة وتسلَّم القيادة من بعده رافع بن عميرة وشنَّ عدة هجمات للوصول إلى ضرار وإنقاذه، ولكن محاولاته باءت بالفشل. فأرسل إلى خالد بن الوليد – القائــد العام للقوات الإسلامية –آنئذ– يخبره بما حدث.

وانطلق خالد في وقت ما بين منتصف الليل الفجر على رأس قــوة تبلــغ أربعة آلاف خيَّال. وفي الصباح وصل خالد بجيشه إلى ساحة المعركة الناشبة بين رافع والروم.. وعندما اقترب خالد من ميدان المعركــة رأى فجــأة أحــد الخيَّالــة

---

[1]– الطرق الحكمية لابن القيم الجوزية.

[2] – في العام ١٣ هــ حاصر المسلمون بقيادة خالد بن الوليد مدينة دمشق، لــذلك حــشد هرقــل إمبراطور الروم جيشا قوامه اثنا عشر ألفا لفك الحصار فأرسل خالد قوة بقيادة ضرار بــن الأزوز للهجوم على الجيش الروماني ولكن الرومان أخذوه أسيرا بعد أن أصيب بسهم في ساعده الأيمن.

المسلمين يمر من خلفه ويتجه نحو الروم بسرعة، وقبل أن يتمكن خالد من إيقافه استطاع هذا الخيَّال أن يصل إلى صفوف الروم. وكان هذا الخيَّال نحيلا ويرتدى زِيًّا أسودا ويغطى صدره بدرع، وكان يتسلح بسيف ورمح كبير ويضع على رأسه عمامة خضراء ويلف وجهه بقناع بحيث لا يُرى منه سوى العينين. ورأى رافع هذا الخيَّال قبيل رؤيته لخالد وعلَّق قائلا: "إنه يهجم مثل خالد، ولكنه ليس خالد".

كان هذا الخيَّال يهجم على صفوف الروم فيقتل منهم برمحه المخيف. وكان يبدو وكأنه يريد الإنتحار، فثيابه ورمحه كانت تقطر دما.

وأثار هذا الخيَّال حماسة وشجاعة المسلمين فعادوا إلى القتال بروح معنوية عالية. وبعد أن بدأ الهجوم العام، اقترب خالد من الخيَّال المقنّع وقال له: "أيها الفارس أرنا وجهك". فنظر الناس بعينيه السوداوين إلى خالد ثم انطلق بسرعة نحو صفوف الروم لمتابعة القتال، وبعدئذ استطاع نفرٌ قليل من رجال خالد بن الوليد أن يوقفوا هذا الخيَّال وقالوا له: "أيها المقاتل الكريم، قائدك يناديك وأنت تهرب منه أرنا وجهك، وأخبرنا عن اسمك كي يكرمك القائد". وعندما مرَّ بالقرب من خالد بن الوليد توقف، فقال خالد: "لقد فعلت ما فيه الكفاية لتملأ نفوسنا بالإعجاب، فمن أنت؟"

وعندما سمع خالد الإجابة أوشك أن يسقط عن فرسه، لأن الصوت كان لفتاة: "أيها القائد لقد ابتعدت عنك بسبب التواضع فقط، فأنت القائد العظيم، وأنا واحد من أولئك الذين يبقون خلف الحجاب. لقد قاتلت كما رأيت لأن قلبي يشتعل نارا".

فقال خالد بن الوليد لها: مَنْ أنتِ؟

فقالت الفتاة: أنا خولة أخت ضرَّار، لقد أُسِرَ أخى وعلىَّ أن أقاتل لأفك أسار أخي.

وألحق المسلمون الهزيمة بجيش الروم ولكن دون أن يصلوا إلى ضرَّار لا حيًّا ولا ميتا. وأبلغ جماعة من العرب أنهم رأوا مائة روماني ينطلقون إلى حمص

ومعهم رجل عاري الصدر مقيد إلى فرسه فأسرع رافع به نميرة بمائة فارس ومعهم خولة في أثرهم وهجموا عليهم وأطلقوا سراح ضرَّار.

لواء النصر

*ذكر المؤرخون أنه أجمع أهل ميسان للمسلمين وعليهم الفيلكان، فلقيهم المغيرة بن شُعبة بالمرغاب وقد خلف العدو دون دجلة، فقالت أزدة بنت الحارث بن كَلَدة: "إن رجالنا في نحر العدو ونحن خلوف ولا آمن أن يخالفوا إلينا وليس عندنا من يمنعنا وأخرى أخاف أن يكثر العدو على المسلمين فيهزمونهم، فلو خرجنا لآمنا مما نخاف من مخالفة العدو إلينا ويظن المشركون أنَّا عدد ومدد قد أتى المسلمين فيكسر هم ذلك وهي مكيدة".

فأجابها النساء إلى ما رأت فاعتقدت لواء من خمارها واتخذت النساء رايات من خُمرهن ومضين وهي أمامهن تقول:

يا ناصرَ الإسلام صفّاً بعد صفْ أن تهزموا وتدبروا عنّا نخفْ

أو يغلبوكم يغمزوا فينا القلفْ

ثم انتهين إليهم والمشركون يقاتلونهم. فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا أن عددا أتى المسلمين فانكشفوا واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدّة، وانتصر المسلمون.

صواحبات يوسف

*قيل: لمّا تُوفّي كُثَيِّر (عزَّة) خرجت نساءُ المدينة لتوديعه، يذكرن عزَّة ويبكينه، فقال أبو جعفر محمد بن علي[1]: أفرجوا لي عن جنازة كُثَير لأرفعها، قال: (أي المحدِّث)، فجعلنا ندفع عنها النساء، وجعل يضربهن محمد بن علي بكمِّه

---

[1]- أبو جعفر محمد بن علي: هو الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين، كان ناسكا عابدا عالما ولد بالمدينة وتوفى فيها.

ويقول: تنحيَّن يا صواحبات يوسف، فانتدبت له امرأة منهن، فقالت: يا ابن رسول والله لقد صدقت، إنّا لصواحبات يوسف، وقد كنّا له خيرا منكم له.

قال: فقال أبو جعفر لبعض مواليه: احتفظ بها حتى تجيئني بها إذا انصرفنا. قال: فلما انصرف أتي بتلك المرأة كأنها شرارة النار، فقال لها محمد بن علي: أنت القائلة إنكن ليوسف خير منّا.

قالت: نعم، تؤمنني غضبك يا ابن رسول الله؟

قال: أنت آمنة من غضبي فأبيني.

قالت: نحن يا ابن رسول الله دعوناه إلى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع والتنعم، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجُبِّ[1]، وبعتموه بأبخس الأثمان وحبستموه في السجن، فأيّنا كان عليه أحنى وبه أرأف؟

فقال محمد: لله دُرك! ولن تغالب امرأة إلا غلبتْ، ثم قال لها: ألك بعل[2]؟

قالت: لي من الرجال من أنا بعلُه.

قال: فقال أبو جعفر: صدقت، مثلك من تملك بعلها ولا يملكها، قال: فلمَّا انصرفت، قال رجل من القوم: هذه زينت بنت معيقب[3].

الله الله عباد الله في دين الله

*روى ابن عبد ربه في (العقد الفريد) قال:

قال أبو بكر الهذلي: دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسلَّمت عليه بالخلافة، ثم جلست.

فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرتُ عندك أمير المؤمنين؟

قالت: نعم، إذ لا علي[1] حي.

---

[1]- الجُب: البئر.

[2]- البعل: الزوج.

[3]- الأغاني للأصفهاني ج ٩ ص ٤٨.

قال: ألست المقلّدة حمائل السيوف بصفّين[2]، وأنت واقفة بين الصفّين تقولين: "أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم إن الجنة لا يرحل عنها من أُوطَنَها، ولا يهرم مَنْ سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوما مستبصرين في دينهم، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم، إن معاوية دلفَ إليكم بعُجم العرب غُلف القلوب، لا يفقهون الإيمان، ولا يدرون ما الحكمة، دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه، فالله الله عباد الله في دين الله؛ إياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عُرى الإسلام، ويطفأ نور الحق، هذه بدر الصغرى والعقبةُ الأخرى. يا معشر المهاجرين والأنصار امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأني بكم غدا ولقد لقيتم أهل الشام كالحُمر الناهقة تصقّع صقَع البقر، وتروث روث العتاق".

فكأني أراك على عصاك هذه وقد إنكفا عليك العسكران يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة. فإن كدتِ لتقتلين أهل الشام لولا قدر الل،ه وكان أمر الله قدرا مقدورا، فما حملكِ على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تُبدَ لكم تسؤكم)[3]، وإن اللبيب إذا كره أمرا لا يحب إعادته.

قال: صدقت، فاذكري حاجتك.

قالت: إنه كانت صدقتنا تُؤخذ من أغنيائنا فتُردُّ على فقرائنا، وإنا قد فقدنا ذلك، فما يُجبر لنا كسير، ولا ينعش لنا فقير، فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبه من الغفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك استعان بالخونة، ولا استعمل الظّلَمة.

---

[1]- علي: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رابع الخلفاء الراشدين.

[2]- صفين: معركة دارت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

[3]- سورة المائدة، الآية (١٠١).

قال معاوية: يا هذه، إنه ينُوبنا عن أمور رعيتنا أمور تنبثق، وبحور تنفهق.

قالت: يا سبحان الله، والله ما فرض الله لنا حقا فجعل فيه ضررا على غيرنا، وهو علاَّم الغيوب.

قال معاوية: يا أهل العراق، نبّهكم علي بن أبي طالب، فلم تُطاقوا! ثم أمــر برَد صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

دع عنك تذكار ما قد نسى

*وروى ابن عبد ربه أيضا قال: قال عامر الشعبى: وفــدت ســودةُ بنــت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبى سفيان، فاستأذنت عليه فأُذن لهــا. فلمَّا دخلت عليه سلَّمت عليه.

فقال لها: كيف أنت يا ابنةَ الأشتر؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين.

فقال لها: أنتِ القائلة لأخيك:

شمِّر كفعلِ أبيك يا ابن عمارة يومَ الطِّعان ومُلتقى الأقرانِ

وانصر علياً والحسينَ ورَهطَه واقصد لهندٍ وابنها بهَوَانِ

إن الإمام أخا النبي محمدٍ علَمُ الهدى ومنارة الايمانِ

فقُد الجيوشَ وسِرْ أمام لوائه قُدُما بأبيض صارمٍ وسِنانِ

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قــد نسى.

قال: هيهات، ليس مثلُ مقامِ أخيك يُنسى.

قالت: صدقت، والله يا أمير المؤمنين، ما كان أخي خفــيّ المقــام، ذليــل المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإنَّ صخرا لتأتَمُّ الهداةُ به كأنه علمٌ في رأسه نارُ

وبالله أسال يا أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته.

قال: قد فعلت فقولي حاجتك.

قالت: يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيّدٌ، ولأمورهم مقلَّد، والله سائلُك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تُقدم علينا من ينهض بعزّك، ويبسط سلطانك، فيحصدنا حصاد السُّنبل، ويدوسنا دِياس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسألنا الجليلة. هذا ابن أرطأة قدِم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإمّا عزلته فشكرناك، وإمّا لا فعرفناك!

فقال معاوية: إياي تهددين بقومك؟ والله لقد هممت أن أردَّك إليه على قَتَب[1] أشرسَ فينفّذ حكمه فيك.

فسكتت ثم قالت:

صلّى الإله على روحٍ تضمّنَهُ	قبرٌ فأصبح فيه العدلُ مدفونا
قد حالفَ الحقّ لا يبغي به ثمناً	فصار بالحقّ والإيمان مقرونا

قال: ومن ذلك؟

قالت: علي بن أبي طالب رحمة الله تعالى.

قال: ما أرى عليك منه أثراً!

قالت: بلى، أتيته يوما في رجلٍ ولاّه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغَث والسمين، فوجدته قائما يصلى، فانفتل من الصلاة ثم قال برأفةٍ وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبرَ الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء، ثم قال: اللهم إني لم أمرهم بظلم خلقك ولا ترك حقك. ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم .. قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقيةُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ. إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام". فعزله يا أمير المؤمنين ما خزمه بخِزام، ولا ختمه بختام.

فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها.

فقالت: ألي خاصةً أم لقومي عامة؟

[1]- القتب: الرحل. واقتتب البعير: شدَّ عليه القتب.

قال: وما أنتِ وغيرك؟

قالت: هي والله إذاً الفحشاءُ واللؤمُ إن لم يكن عدلاً شاملًا وإلا لا يسعني ما يسع قومي.

قال: هيهات! لمَّظمكُم[1] ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئــا مـــا تُفطمون وغرَّكم قوله:

فلو كنت بواباً على بابِ جنّةٍ لقلتُ لهمدانَ ادخُلوا بسلام

وقوله:

ناديتُ هَمــدان والأبــوابُ مغلقــةٌ ومثــلُ هَمــدان ســنَّي فتحــةَ البــاب

كالهندُواني لم تُفللْ مضاربُه وجهٌ جميلٌ وقلبٌ غير وجَاب

اكتبوا لها بحاجتها.

مرعى ولا كالسعدان

*عن سهل بن أبي سهل التميمى عن أبيه قال: حجَّ معاوية، فــسأله عــن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون يُقال لها درامية الحجونية، وكانت سوداء كثيرة اللحم فأُخبر بسلامتها، فبعث إليها فجيء بها. فقال: ما حالك يا ابنةَ حام[2]؟

فقالت: لست لحام أن عبتني؛ أنا امرأة من بنى كنانة.

قال: صدقت، أتدرين لمَ بعثت إليك؟

قالت: لا يعلم الغيب إلا الله.

قال: بعثت إليك لأسألك: علام أحببتِ علياً وأبغضتني؛ وواليته وعاديتني؟

قالت: أو تعفيني.

قال: لا أعفيك.

---

[1]- لمظكم: أعطاكم ، ولمظه من حقه: أعطاه شيئا قليلا منه.

[2]- حام وسام: أبا الجنس البشرى، الأول أبو الجنس الأسود، والثاني أبو الجنس الأبيض.

قالت: أما إذْ أبَيْت، فإني أحببت عليّاً على عدله في الرعية، وقسْمه بالسوية، وأبغضتك على قتال مَنْ هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لـك بحـق وواليت عليا على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم مـن الـولاء، وحبه للمساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتـك علـى سـفكك الـدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفخ بطنُك، وعظُم ثدياك، وربتْ[1]عجيزتُك.

قالت: يا هذا، بهند والله كان يُضرب المثل في ذلك لأبي.

قال معاوية: يا هذه أربعي، فإنّا لم نقل إلا خيراً؛ إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظُم ثدياها تروى رضيعُها، وإذا عظُمـت عجيزتُهـا رزُن[2] مجلسُها. فرجعتْ وسكنت. قال لها: يا هذه، هل رأيت عليّاً؟

قالت: إي والله.

قال: كيف رأيته؟

قالت: رأيته والله لم يفتنه المُلك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شـغلتك.

قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم، والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيتُ صدأ الطّسْت.

قال: صدقتِ! فـهل لك من حاجة؟

قالت: أو تفعل إذا سألتك؟

قال: نعم.

قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلُها وراعيها.

قال: ماذا تصنعين بها؟

قالت: أغذو بألبانها الصغار، واستحيي بها الكبار، واكتـسب بهـا أغلـى المكارم، وأصلح بها بين العشائر.

---

[1]– ربت: أي عظمت.

[2]– رزُن : استقام.

قال: فإن أعطيتك ذلك، فهل أحُلُّ عندك محلَّ علي بن أبي طالب؟

قالت: ماءٌ ولا كصدّاء، ومرعىّ ولا كالسعدان[1]، وفتـــى ولا كمالِـــك، يـــا سبحان الله، أوَ دونَهُ؟ فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعُدْ بالحِلمِ مني عليكم   فمنْ ذا الذي بعدي يؤمَّل للحِلمِ

خُذيها هنيئاً واذكري فعلَ ماجدٍ   جزاكِ على حرب العداوة بالسِّلمِ

ثم قال: أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئا.

قالت: لا والله ولا وَبَرَةً واحدة من مال المسلمين[2].

خطاب النساء الحناء والرجال الدماء

*حُكى عن معاوية[3] أنه لمَّا ولى الخلافة وانتظمت إليه الأمور وامتلأت منه الصدور وأذعن لأمره الجمهور وساعده في مراده القدر المقدور استحـــضر ليلـــة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفِّين ومن كان يتولى كبيـــر الكريهـــة مـــن المعروفين فأنهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى مَنْ كان يجتهـــد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض.، فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تُـــسمى الزرقاء بنت عُدّى كانت تعمل الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يـــا أصحاب علي، تسمعهم كلاما كالصوارم مستحثه لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتـــل، والمُدبِر لأقبل، والمُسالِم لحَارب، والفَار لكَرَّ، والمتزلزل لاستقر.

فقال لهم معاوية رضى الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟

فقالوا: كلنا نحفظه.

قال: فما تشيرون عليَّ فيها؟

---

[1]- السعدان: ضربٌ من الحشيش يُضرب المثل به لتهافت الماشية عليه.

٢- العقد الفريد لابن عبد ربه ج٢ص١١٣، وصبح الأعشى للقلقشندي ج١ ص٢٥٩، وبلاغات النساء لابن طيفور ص٧٢.

[3]- معاوية: هو معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية في الشام سنة ٦٣٦ هـــ، عُـرِف بالدهاء والحنكة، وقد خلف الإمام علي بعد مقتله، وبايعه المسلمون على الخلافة الإسلامية.

قالوا: نشير بقتلها فإنها أهل لذلك.

فقال لهم معاوية رضى الله عنه: بئسما أشرتم به وقبحا لما قلتم، أيُحسن أن يشتهر عنى أنني بعد ما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها، إني إذا للئيم. لا والله لا فعلت ذلك أبدا. ثم دعا بكاتبه فكتب له كتابا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إليَّ الزرقاء بنت عُدَّى مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها ومهِّد لها وطـأة لينـا ومركبا ذلولاً.

فلمَّا ورد الكتاب، ركب إليها وقرأ عليها، فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنـا بزائغة عن الطاعة. فحملها في هودج وجعل غشاءه خزا مُبطناً ثم أحسن صحبتها.. فلمَّا قدمت على معاوية قال لها: مرحبا وأهلا خير المقدم قدمة وافد، كيف حالك يـا خالة؟ وكيف رأيت سيرك؟

قالت: خيرُ مسير.

فقال: هل تعلمين لما بعثت إليك؟

قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى.

قال: ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفِّين، وأنت بين الصفوف توقـدين نار الحرب وتحرضين على القتال؟

قالت: نعم.

قال: فما حملك على ذلك.

قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس، وبتُر الذنب، والدهر غيـر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

فقال: صدقت فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟

قالت: لا والله.

قال: لله أبوك! فلقد سمعتك تقولين: "أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد إلا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه أن الحق كان يطلب ضالة فأصابها، فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار فكأنكم وقد التـأم

شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل، وغلب الحقُ باطله فإنه لا يستوى المحق والمبطل، (أَفَمَنْ كان مؤمنا كمَنْ كان فاسقاً لا يستوون[1]) فالنزال النزال والصبر الصبر، ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعده". يا زرقاء، أليس هذا قولك وتحريضك؟

قالت: لقد كان ذلك.

قال: لقد شاركت عليّاً في كل دم سفكه.

فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك، مثلك مَنْ يبشر بخير ويسرّ جليسه.

فقال معاوية: أو قد سرَّك ذلك؟

قالت: نعم، والله لقد سرَّني قولك وأنّى لي بتصديقه؟

فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليَّ من حُبكم له في حياته، فاذكري حوائجك نقضِ.

فقالت: يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي أن لا أسأل أحدا بعد علي حاجة.

فقال: قد أشار عليَّ بعض من عرفك بقتلك.

فقالت: لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته.

قال: كلا بل نعفو عنك ونُحسن إليك، ونرعاك.

فقالت: يا أمير المؤمنين كرمٌ منك ومثلك مَنْ قدر فعفا وتجاوز عمن أساء، وأعطى من غير مسألة.

---

[1]- سورة السجدة، الآية (١٨).

قال: فأعطوها كسوة ودراهم وأقطعها ضيعة تغل لها في كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب رسالة إلى وإلى الكوفة بالوصية بها وبعشرتها[1].

وما خفي عليك مني اكثر

*قال الشعبي: استأذنت بكارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان، فأذن لها، وهو يومئذ بالمدينة، فدخلت عليه، وكانت امرأة قد أسنت وعشي[2] بصرها وضعفت قوتها، ترعش بين خادمين لها، فسلَّمت وجلست. فردَّ عليها معاوية السلام، وقال: كيف أنت يا خالة؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين.

قال: غيَّرك الدهر.

قالت: كذلك هو ذو غير، مَنْ عاش كَبُرَ ومَنْ مات قُبر.

قال عمرو بن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيدُ دونك فاستسر من ذرانا سيفاً حُساماً في التراب دفينا
قد كنتُ أدخرُهُ ليوم كريهة فاليومَ أبرزه الزمان مَصونا

قال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أتُرى ابن هندٍ للخلافة مالِكا هيهات ذاك وإن أراد بعيدُ
منَّتك نفسُك في الخلاء ضلالةً أغراك عمرو للشَّقا وسعيدُ

قال سعيد بن العاصي: هي والله القائلة:

قد كنتُ أطمعُ أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطِباً

---

[1]- المستطرف ج ١ ص ٣٠٢ –٣٠٣.

[2]- عشي بصرها: ضعف.

فالله أخرَّ مدتي فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يومٍ للزمان خطيبُهم بين الجميع لآلِ أحمدُ عائبا

ثم سكتوا. فقالت: كلامك أغشى بصري وقصر حجتي، أنا والله قائلـــة مـــا قالوا، وما خفي عليك منى أكثر، فضحك، وقال: ليس يمنعنا ذلك من برِّك، أذكرى حاجتك.

قالت: أما الآن فلا[1].

أين تريدون رحمكم الله؟

*روى ابن عبد ربه في كتابه "العقد الفريد"،

عن عبيد الله بن عمر الغسانى عن الشعبى، قال: كتب معاوية إلـــى واليـــه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريس بن سراقة البارقى برحلها، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيرا وبالشر شرا بقولها فيه. فلما ورد عليه كتابـــه ركـــب إليهـــا فأقرأها كتابه، فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب، ولقـــد كنـــت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدرى.

فلما شيَّعها وأراد مفارقتها، قال لها: يا أم الخير إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أنه مجازيني بالخير خيرا وبالشر شرا فما لى عندك؟

قالت: يا هذا، لا يطمعنك برُّك بى أن أسرّك بباطل، ولا تؤيسك معرفتـــى بك أن أقول فيك قول الحق.

فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية فأنزلها مع الحَرَم ثم أدخلهـــا في اليوم الرابع وعنده جلساؤه، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمـــة الله وبركاته.

[1]- العقد الفريد لابن عبد ربه.

فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير بحق ما دعوتني بهذا الاسم.

قالت: يا أمير المؤمنين، مه فإن بديهة السلطان مدحضه لما يحب علمه، ولكل أجل كتاب.

قال: صدقت فكيف حالُك يا خالة، وكيف كنت في مسيرك؟

قالت: لم نزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتى صرت إليك فأنا في مجلس أنيق عند ملك رفيق.

قال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم.

قالت: يا أمير المؤمنين يعيذك الله من دحْض المقال وما تروى عاقبته.

قال: ليس هذا ردنا، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمَّار بن ياسر.

قالت: لم أكن زوّرْتُه قبل، ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نفثها لساني عند الصدمة، فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت.

فالتفت معاوية إلى جلسائه، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين، قال: هات.

قال: كأني بها وعليها برد زبيدي[1] كثيف بيّن النسج، وهى على جمل أومك وقد أُحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفيرة، وهى كالفحل يهدر في شقيقته[2] تقول: "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيمٌ! إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل وبيَّن السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم في عماء مدلهمة، فأين تريدون رحمكم الله؟ أفرارا عن أمير المؤمنين أم فرارا من الزحف أم رغبة عن الإسلام أم ارتداد عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه، يقول: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم[3]"، ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم عِيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يارب أزِمّة

---

[1]- برد زبيدي: ثوب مختار.

[2]- الشقشقة: شئ كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

[3]- سورة محمد، الآية (٣١).

القلوب فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى وألِّف القلوب على الهدى وأردد الحق إلى أهله، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والرضى التقى والصديق الأكبر، إنها إحَنٌ بدرية[1] وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية[2] وَثَب بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات بني عبد شمس، ثم قالت: "قاتلوا أئمة الكُفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون[3]"، صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا عن بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، فكأني بكم غدا ولقد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة، فرت من قسورة[4]، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى وعما قليل ليصبحن نادمين حتى تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة، ولات حين مناص، إنه من ضلّ والله عن الحق وقع في الباطل. ألا إن أولياء الله استصغرو عمر الدنيا فرفضوها واستطابو الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطلَ الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله وصهره وأبي سبْطه، خُلِق من طينته وتفرّع من نبعته وخصَّه بسره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين: ها هو ذا مُفَلِّق الهمم، ومُكسِّر الأصنام، صلّى والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزى بدر وأفنى أهل أُحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرَّق به جمع هوزان، فيا لها من وقائع زرعت في قلوب نفاقا، وردّة وشقاقا، وزادت المؤمنين إيمانا، وقد أجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت[5] في ذلك.

---

[1]- إحن: أحقاد، و بدرية: نسبة إلى بدر.

[2]- أحدية: نسبة إلى أحد.

[3]- سورة التوبة، الآية(١٢).

[4]- قسورة: أسد.

[5]- ما حرجت في ذلك: أي لما وقع عليّ اللوم.

قالت: والله ما يسوءني أن يجرى قتلى على يدي من يسعدني الله بشفائه.

قال: هيهات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله؟

قالت: وما عسيتُ أن أقول في عثمان، استخلفه الناس وهم بــه راضــون وقتلوه وهم له كارهون.

قال معاوية: يا أم الخير هذا أصلك الذي تبنين.

قالت: لكن أشهد الله وكفي بالله شهيدا، ما أردت بعثمان نقصا، ولكن كــان سابقا إلى الخير، وإنه لرفيع الدرجة غدا.

قال: فما تقولين في طلحة بن عبد الله؟

قالت: وما عسى أن أقول في طلحة؟ أُغتيل من مأمنه، وأُتي من حيث لــم يحذر، وقد وعده رسول الله الجنة.

قال: فما تقولين في الزبير؟

قالت: وما عسى أن أقول في ابن عمة رسول الله وحواريه وقد شهد لــه رسول الله الجنة، وقد كان سباقا إلى كل مكرمة في الإسلام، وأنــا أســألك بحق الله يا معاوية، فإن قريشا تحدثت أنك أحلمها، أن تسعني بفضل حلمك، وأن تعفيني من هذه المسائل، وتسألني عمَّا شئت من غيرها.

قال: نعم ونعمة عين، قد أعفيتك منها، ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردّها مكرمة.

رسولُ النساء

*رُوى عن أسماء بنت زيد الأنصارية أنه أتت النبي ρ فقالت: إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي، إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء، فآمنا بك واتبعناك، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات، قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وأن الرجال فُضِلوا بالجُمُعات وشهود الجنائز والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا أولادهم أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله؟

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحاب فقال: "**هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟**

فقالوا: بلى يا رسول الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " انصرفي يا أسماء وأَعْلِمي من وراءك من النساء أن حُسْن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال".

فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله[1].

شجاعة آل بيت النبوة

*منذ أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد ظلَّ يؤسس له المُلْك ويشد ركنه إخضاع المعارضين وترغيب الانتهازيين، والقضاء على خصومه بالقتل أو الرشوة، أو تولية الحقراء والسفاحين حكم الأمصار لإخضاع الناس بالقوة من أمثال الحجاج وزياد بن أبيه ومسلم بن عقبة الذي دمّر مدينة النبي والكعبة، كما قتل معاوية بالسم الحسن بن علي، وحجر بن عُدّي صاحب رسول الله صلي الله عليكم وسلم، وأعظم الناس دينا وصلاة وعِلما.

وعاش معاوية بعد أخذ البيعة ليزيد أربع سنوات، وحينما حضرت معاوية الوفاة.. كانت وصيته الأخيرة ليزيد أن يحذر ثلاثة هم أخطر أعدائه بعد أن خضعت العرب وبايعت، هؤلاء الثلاثة هم: عبد الله بن عمر، والحسين بن علي، وهو أخطرهم لقرابته من محمد صلي الله عليه وسلم دون أن يظن أن أهل العراق لابد أن يخرجوه للقتال ولكنهم لا بد خاذلوا أباه من قبل.

لم يكد معاوية يلقى ربه حتى أصر يزيد على أخذ البيعة ممن رفضوا بيعته في حياة معاوية. فكتب إلى أمير المدينة الوليد بن أبي سفيان، أن يأخذ الحسين وعبد الله بن عمر، وابن

---

[1]- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر (ج ٤ ص ٢٣٨).

الزبير بالشدة حتى يبايعوا. ولكن الحسين رفض وأصر على موقفه، مع إدراكه ما يحمل هذا الإمتناع من خطر على حياته، فكان لا بد أن يلجأ إلى مكان بعيد يمكنه فيه أن يدبر الأمور.

وبعد أيام أسلمتهم البيداء إلى مكة فألقوا رحالهم، حتى إذا أخذوا في إعـداد منـازلهم وإراحة دوابهم، أخذ الحسين رضي الله عنه الإعداد للمواجهة فكتب إلى أنـصاره بـالعراق رسالة بعث بها ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب، فنزل (الكوفة) وأقبل عليـه مؤيـدي الحسين يبايعونه على القتال والنصرة، حتى بايعه أكثر من اثنا عشر ألفا، فاستبشر مسلم بـن عقيل وكتب إلى الحسين بذلك.

وصل الخبر إلى يزيد فعزل أميرها النعمان بن بشير لغفلته عن مسلم حتـى بايعـه الناس وولّى مكانه عبيد الله بن زياد ولم يلبث الناس أن انصرفوا خائفين من إرهاب عبيد الله بن زياد. وخرج مسلم بن عقيل نائب (الحسين) هائما على وجهه حتى آوته امرأة كانت واقفة على باب دارها تنتظر عودة ابنها. ولم يصبح الصباح حتى كانت جواسيس عبيد الله بن زياد قد أحاطت به فأبى أن يستسلم فقاتل وحده ضد ستين رجلا مسلحا من شرطة ابن زياد حتى إذا عجزوا عن قهره أخذوا يشعلون القصب الجاف بالنار ويلقونه عليه فاقتحم النار وظلّ يقاتلهم حتى غلبته الجراح فهدأ، فأخذوه إلى بن زياد، فأمر أن يُلقى من أعلى قصر الخلافة. فضُربت عنقه وأُلقيت جثته إلى الناس لإرهابهم وتخويفهم. انتهى أمر مسلم هذه النهاية بعد أن وصلت رسالته إلى الحسين وأهل بيته في مكة فتهيَّأ للسفر إلى الكوفة[١] بنسائه وصبيانه.

وصحبت السيدة زينب بنت على بن أبي طالب[٢] أخاها الحسين رضى الله عنه لملاقاة جيش ابن زياد لمناصرة الحق ومحاربة الباطل.

قالت لمَّا زحف عمر بن سعد نحو الحسين والحسين جالس أمام بيته مختبأ بسيفه: يـا أخي أما تسمع الأصوات قد اقتربت.

فرفع الحسين رأسه، فقال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقـال لي: إنك تروح إلينا.

فلطمت أخته وجهها، وقالت: يا ويلتاه.

فقال الحسين: ليس لك الويل يا أخيَّة، اسكتي رحمك الرحمن.

قالت: واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة يوم ماتت فاطمة أمي وعلي أبـى وحـسن أخي، يا خليفة الماضي وثمال الباقي.

---

[١]– شهيرات نساء العرب والإسلام ص ١٨٥– ١٨٧ مع بعض التصرف.

[٢]– السيدة زينب: سيدة جليلة ذات عقل راجح ورأى وفصاحة وبلاغة، ولدت قبل وفاة جدها صـلى الله عليـه وسلم وتزوجت بابن عمها عبد الله بن جعفر، فولدت عليا وعباسا وأم كلثوم وعونا الأكبر.

فنظر إليها الحسين، فقال: يا أخيَّة لا يذهبن حلمك الشيطان.

فقالت زينب: بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله، استقتلت نفسي فداك فرد غصته. وترقرقت عيناه وقال: لو ترك القطا[1] ليلا لنام.

فقالت: يا ويلتاه افتغضب نفسك اغتصابا فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي. ولطمت وجهها وأهوت إلى جيبها وشقته وخرت مغشيا عليها. فقام إليها الحسين، فصبَّ على وجهها الماء وقال لها: يا أخيَّة اتقى الله وتعزى بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد واحد. أبي خيرٌ منى وأمي خير منى وأخي خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة، فعزاها بهذا العزاء ونحوه، وقال لها: يا أخيَّة إني أقسم عيك فابريء قسمي، لا تشقى عليَّ جيبا ولا تخمشي عليَّ وجها ولا تدعى عليَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت.

ثم مرَّت زينب عقب قتل أخيها الحسين فوجدته صريعا، فقالت: يا محمداه يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء، يا محمداه، وبناتك سبايا وذريتك مقتلة، فأبكت بكلامها هذا العدو والصديق. ولمَّا دنا عمر بن سعد من الحسين، قالت: يا عمر بن سعد أيقتل أبو عبيد الله وأنت تنظر إليه. فسالت دموع عمر على خديه ولحيته وصرف بوجهه عنها.

ثم حُملت زينب إلى عبيد الله بن زياد وكانت أسنّ من جمل إليه. فلما دُخل برأس الحسين وصبيانه وأخوته ونسائه على ابن زياد لبست زينب أرذل ثيابها وتنكرت وحفَّ بها إماؤها. فلما دخلت جلست فقال عبيد الله بن زياد: من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه، فقال ذلك ثلاثا كل ذلك لا تكلمه فقال بعض إماءها: هذه زينب بنت فاطمة. فقال لها عبيد الله: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيرا لا كما تقول أنت، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر.

قال ابن زياد: فكيف رأيت صنع الله بأهل البيت؟

قالت: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحابون إليه وتخاصمون عنده.

قال الطاغية: قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة من أهل بيتك.

قالت: لقد قتلت كهلي وأبدت أهلي وقطعت فرعى واجتثيت أصلى، فإن يشفيك هذا فقد اشتفيت.

---

[1]– القطا: طيور بحجم الحمام، مفردها "قطاة".

ثم انصرف عنها فوجه نظره إلى علي بن الحسين فأنكره وسأله: ما اسـمك؟ أجـاب الغلام: – كان لي أخ يُقال له أيضا (علي) قتله الناس.

قال بن زياد: إن الله قد قتله.

قال: (الله يتوفى الأنفس حين موتها وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله).

فصاح الطاغية: أنت والله منهم ويحك. وأمر رجاله أن يكشفوا عنه وينظروا هل بلغ أم لا لكي يقتله، وقال لمن حوله من خاصته: دعوني أقتله فإنه بقية هذا النسل[1] فأحسم به هذا القرن[2] وأميت به هذا الداء[3] وأقطع به هذه المادة. فقد كان على بن الحسين الوحيد الذي بقـى من نسل آل بيت النبوة بعد أن حصد الموت كل الرجال في ساحة القتال في كربلاء، ولولا أن عمته السيدة زينب ضمته إلى صدرها ومنعته قائلة: "لن تقتلوه إلا إذا قتلتموني معـه". ولمَّـا رأى زياد إصرارها ترك الغلام ينطلق مع الأسرى.

واستأنف الركب الحزين سيره إلى دمشق حيث قصر يزيد بن معاوية، وهيَّـأ يزيـد مجلسه ودعا إليه خاصته وعظماء أهل الشام ليشهدوا إذلال آل بيت النبـوة ووضـعت رأس الحسين على الأرض تحت قدميه. فالتفت يزيد إلى أصحابه الذين ينادمونه في مجالس الشراب والطرب، وقال: أبى هؤلاء، (وأشار إلى ما بقى من آل البيت وإلى رأس الحسين) أن ينصفونا ويبايعونا فأنصفتا سيوف في أيماننا تقطر الدماء. ثم أشار إلى القوم قائلا:أتدرون لماذا انتهـى الأمر بهذا –مشيرا إلى الحسين– إلى ما وقع ذلك لأنه طاولني، وقال: أبى علي خير من أبيك معاوية وأمي فاطمة خيرٌ من أمك وجدي رسول الله خيرُ من جدك وأنا خيـر منـك وأحـق بالخلافة.

ثم أمر حاجبه أن يُدخل نساء آل البيت وأخذ أهل المجلس من الفاسقين ينظرون إليهن حتى بلغ الأمر برجل فاسق من أهل الشام أن يطلب من يزيد أن يهبه فاطمة بنت علي وكانت جميلة الوجه، فخافت منه وأمسكت بأختها زينب تحميها، وقالت زينب للرجل: لعنـك الله مـا تستطيع ذلك لا أنت ولا غيرك.

فقال يزيد الفاجر: إن ذلك حقي ولو شئت لنفذته.

قالت زينب: لا والله لا تستطيع أن تفعل إلا إذا خرجت من ملة المسلمين.

فغضب يزيد، وقال: إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فأجابت في إصرار: بدين أبى وأخي وجدي اهتديت يا يزيد أنت وأبوك وجدك.

---

[1]– يعني أهل بيت النبوة.

[2]– القرن: الجيل.

[3]– يقصد الدعوة للإسلام.

فقال غاضبا: كذبت يا عدوة الله.

قالت زينب: إنك أمير مسلط[1] تشتم بها من تشاء وتقهر من تقهره. فلم يُجِب. لقد صدق الله يا يزيد: (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذَّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون[2]). هل ظننت يا يزيد أننا بد إن ضاقت علينا الأرض وأصبحنا أسرى لديك أن لك عند الله كرامة، وأن بنا عليه هوانا فشمخت بأنفك؟ لا إن الله تعالى يقول: (ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين[3]). أليس عجيبا يا بن الطلقاء[4]، هل من العدل أن تُساق نساء رسول الله حاسرات يُساقن من بلد إلى بلد يتشوف إليهن القريب والبعيد؟ ليس معهن محرم من الرجال؟ أيزيد كيف أهدرت هذه الدماء الطاهرة. والله ما فريت إلا في جلدك، ولا حززت إلا في لحمك، وستعلم أنت ومن بوأك ومكنّك من رقاب المؤمنين يوم يكون الحكم لله ويكون خصمك محمد رسول الله آينا شر مكانا وأضعف جندا. تذكر يا يزيد يوم تلقى الله وتتعوى وأتباعك عند الميزان فلا يجيبك إلا ابن مرجانة عبيد الله بن زياد[5] سوف تلقى الله يا يزيد وخير زاد تزودن به لإخراج قتل ذرية محمد. والله ما اتقيت إلا الله وما شكوت إلا إليه فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا". ثم سكتت زينب وأطرق يزيد وساد صمت وسكون، ثم أمر يزيد بعودتهن إلى المدينة.

ولكن وجود زينب في المدينة مع بلاغتها وخبرتها بالأحداث، وبعد أن عرف يزيد قوة نفسها ورباطة جأشها أمر واليه على المدينة أن يشتت شمل الباقين من آل بيت رسول الله في أقطار المعمورة، فرحلت إلى مصر وفاضت روحها الكريمة في رجب عام ٦٢ هـ ودُفنت في مقامها المشهور بمصر، وأُقيم على قبرها مزار يقصده الناس حتى يومنا هذا.

ذاتُ النطاقين

*هي أسماء بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة، وُلدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، وأمها هي وأخيها عبد الله بن أبي بكر قتيلة بنت عبد العُزى العامرية القرشية، وهي الأخت الكبرى للسيدة عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها أم المؤمنين.

---

[1]- أمير مسلط: أي لك سلطة.

[2]- سورة الروم، الآية (١٠).

[3]- سورة آل عمران، الآية (١٧٨).

[4]- كلمة تُطلق على بنى أمية لأن الله جمعهم عند فتح مكة حتى إذا ظنوا أنهم مقتولون لا محالة لكثرة إيذائهم لرسول الله ، عفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء.

[5]- كان عبيد الله بن زياد ابن سفاح لا يُعرف له أب، ومرجانة أمه.

أسلمت أسماء بمكة بعد إسلام سبعة عشر إنسانا، وتزوجت من الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن قصر بمكة ثم هاجرت إلى المدينة وهى حامل بولده عبد الله أول مولود في الإسلام بعد الهجرة فوضعته بقباء، وطلقها الزبير بعد أن ولدت له عدة أبناء فعاشت مع ابنها عبد الله حتى قُتِ.

ورَوَى عنها ابنها عروة أنها قالت: "تزوجني الزبير وما له في الأرض مال ولا مملوك غير فرسه، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونته وأسومه.. حتى أرسل أبو بكر بعد ذلك خادما فكفتني سياسة الفرس".

وكانت أسماء تُسمى "ذات النطاقين"، وسبب هذه التسمية أن رسول الله لما أراد الخروج والهجرة إلى المدينة صنعت أسماء سفرته أي طعامه في بيت أبي بكر، فقال لها أبوها: أبغي لي معلاقا لسفرة رسول الله وعصاما أي حبلا لقربته.

فقالت ما أجد إلا نطاقي.

فقال: هاتيه، فشقته نصفين فجعل أبوها أحدهما معلاقا للسفرة والآخر عصاما لقربة الماء، ولذلك سمَّاها رسولُ الله ذاتَ النطاقين.

وقال الزبير: إن الرسول لمَّا رأى ذلك منها قال لها: "أبدلك الله عز وجل بنطاقك هذا نطاقين في الجنة". فقيل لها "ذات النطاقين". لكن جندَ الحجاج كانوا يعيِّرون عبد الله بن الزبير ابنها بذات النطاقين، فلمَّا بلغه ذلك أنشد قول أبي ذؤيب الهذلي متمثلا:

وعيَّرها الواشون أنى أحبّها ... وتلك شكاةٌ ظاهر عنك عراها

فإني أعتذر عنها فإني مكذب ... وإنْ تعتذرْ يرددْ عليها إعتذارها

ولمّا ذاع خبرُ هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر، توجَّه المشركون لمنزل أبي بكر مسرعين يسألون أسماء ويخوفونها عن خبرهما وهى لا ترد ساكنا مما أغضب أبو جهل فلطمها على وجهها لطمة أطارت قرطا من أذنيها، ومع ذلك ظلّت رابطة الجأش لا تبوح بسرها.

ورَوَى عبّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جدته أسماء أنها قالت: لمَّا خرج رسولُ الله وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه قالت: فدخل على جدي أبو قحافة –وقد ذهب بصره– فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: كلا والله يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا. وقالت: فأخذت أحجارا فوضعتها في كُوة في البيت كان أبي يضع فيها ماله ثم وضعت ثوبا عليها ثم أخذت بيده فقلت: ضع يدك يا أبي على هذا المال، قالت: فوضع يده، فقال: لا بأس إن كان قد ترك

لكم كل هذا فقد أحسن ففي هذا لكم بلاغ، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئا ولكنى أردت أن الشيخ بذلك.

وذات يوم زارتها أمها قُتَيْلة بنت عبد العُزى ومعها هدية من زينب وسمن وقرط حلية للأذن، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو أن تدخل الهدية بيتها، وأرسلت إلى عائشة تستفتى رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام: "لتدخل ولتقبل هديتها"، ونزل في ذلك قول الله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين* إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون[1]).

وشهدت أسماء واقعة اليرموك مع زوجها الزبير وأبلت بلاء حسنا، وفي أيام الفتن كانت أسماء تتخذ خنجرا تحت مرفقها لتدافع عن نفسها إذا هاجمها أحد.

قالت أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين رضى الله عنها ترثى زوجها الزبير ابن العوام، وكان قتله عمرو بن جرموز المجاشعي بوادي السباع وهو منصرف من واقعة الجمل:

غَدَرَ ابن جرموز بفارس بهمة   يوم الهياج وكان غير معرِّدِ[2]

يا عمرو لو نبهته لوجدته   لا طائشا رعش الجنان ولا اليدِ

ثكلتْكَ أمُّك إن قتلت لمُسلِماً   حلَّت عليك عقوبةُ المتعمِّدِ

ومن حديث ابن أبي شيبة قال: أقبل رجل بسيف الزبير إلى الحسن بن على فقال:: لا حاجة لي به، أدخله إلى أمير المؤمنين. فدخل به إلى علي، فناوله إياه وقال: هذا سيف الزبير، فأخذه علي فنظر إليه مليا ثم قال: رحم الله الزبير لطالما فرَّج الله به الكُرب[3] عن وجه رسول الله. وقالت امرأته ترثيه (الأبيات).

وعاشت أسماء مع ابنها عبد الله أيام الفتن التي نزلت بالمسلمين فأشعلت بينهم الحرب وحينما نازع ابنها عبد الله يزيد بن معاوية الخلافة، أرسل له الحجاج فحاصره في الكعبة. ولما أحسَّ أن نهايته دنت، دخل على أمه وهى عمياء وقد بلغت مائة سنة فقال لها: يا أماه ما ترين؟ قد خذلني الناس وخذلني أهل بيتي.

فقالت: لا يلعبن بك صبيان بنى أمية، عِش كريما ومت كريما، والله إني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسنا. ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة

---

[1]- سورة الممتحنة، الآيات (٨- ٩).

[2]- معرد: مال وانحرف.

[3]- الكُرب: المصائب.

وبره بأمه، اللهم إني قد أسلمت فيه لأمرك ورضيت فيه بقضائك فأثبني في عبـد الله ثـواب الشاكرين.

فردّ عليها وقال: يا أماه لا تدعى الدعاء لي قبل قتلى ولا بعده.

قالت: لن أدعه، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق، فخرج.

وفي رواية أن عبد الله قال لها: إن القوم يعطوني الأمان وما أردت من الـدنيا فمـا رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بنى أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض إليه فقد قتل عليه أصحابك، ولا تُمكِّن رقبتك يلعب بها غلمان بنى أمية، وإن كنـت أردت الـدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قُتل معك. فدنا عبد الله وقبَّل رأسها، وقال: هذا والله رأيي والذي قمت به داعيا إلى يومي هذا لا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيهـا ومـا دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن يُستحل حرمة ولكنى أحببت أن أعرف رأيك فزيـدتيني بصيرة مع بصيرتي فانظري يا أماه إني مقتول من يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الأمـر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عمل فاحشة ولم يغدر في أمان ولم يتق ظلم مـسلم ولا معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء أنكر عندي من رضا ربى. اللهم إني لا أقول هذا تزكية منى لنفسي أنت أعلم بي ولكنى أقوله تعزية لأمي لتـسلو عنى.

ثم جاءها مودعا وقال لها: إن هذا آخر يوم من الدنيا يمر بي واعلمي يا أماه أنـى إن قُتلت فإنما أنا لحم لا يضيرني ما يُصنع بي. قالت: صدقت يا بنى، أدن منى أودعك، فدنا منها فقبَّلها وعانقها، فقبّل رأسها وودعها وضمته إلى نفسها.

ويُروى أن عبد الله قبل موته دخل على أمه وقد كفَّ بصرها فسلَّم فقالت: مَنْ هـذا؟ فقال: عبد الله، فشممته ثم قالت: يا بني مُت كريما. فقال لها: إن هذا قد أمنني؛ يعنى الحجاج. قالت: يا بني لا ترض الدنية فإن الموت لا بد منه. قال: إني أخاف أن يُمثل بـي. قالـت: إن الكبش إذا ذُبح لا يألم من السلخ.

ثم خرج من عندها وجعل يقاتل وحده حتى أثخن بالجراحات، ولم يستطع النهـوض، فدخل عليه الحجاج فدعا بالنطع[1] فحز رأسه هو بنفسه في داخل الكعبة –لا رحم الله الحجاج. ثم بعث برأسه إلى عبد الملك بن مروان. ثم أقبل فاستأذن على أمه أسماء بنـت أبـي بكـر ليعزيها، فأذنت له فقالت له: يا حجاج قتلت عبد الله؟ قال: يا ابنة أبي بكر إني قاتل الملحدين. قالت: بل قاتل المؤمنين الموحدين. قال لها: كيف رأيت ما صنعت بابنك؟ قالت: رأيتك أفسدت

[1]– النطع: بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو قطع الرأس.

عليه دنياه وأفسد عليك أخرتك ولا ضير أن أكرمه الله على يديك فقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل! ثم قالت له: أتأذن لي أن أدفنه فقد قضيت إربك[1] منه. قال: لا. ثم قال لها: ما ظنك برجل قتل عبد الله بن الزبير؟ قالت: حسيبة الله! فلمَّا منعها أن تدفنه قالت: أما إني سمعت رسول الله يقول: يخرج من ثقيف رجلان: الكذاب والمبير!، فأما الكذاب فالمختار، وأما المبير فأنت. فقال لها: اللهم مبير لا كذاب.

وقال أيوب عن أبى قلابة: شهدت ابنة أبي بكر غسَّلت ابنها الزبير بعد شهر وقد تقطعت أوصاله وذهب برأسه وكفنته وصلت عليه.

لن يعود إليك بمثلها

*ذكر ابن عبد ربه في كتابه "العقد الفريد"، قال: إنه لمَّا قُتل الضحاك بن قيس في موقعة مرج راهط وانهزم الناس؛ نادى مروان بن عبد الملك أن لا يتبع أحد. ثم أقبل إلى دمشق فدخلها ونزل دار معاوية بن أبي سفيان دار الإمارة، ثم جاءته بيعة الأجناد، فقال له أصحابه: إنا لا نتخوف عليك إلا خالد بن يزيد، فتزوج أمه فإنك تكسره بذلك- وأمه ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة- فتزوجها مروان.

فلمَّا أراد الخروج إلى مصر قال لخالد أعرني سلاحا إن كان عندك، فأعاره سلاحا. وخرج إلى مصر، فقاتل أهلها وسبى بها ناسا كثيرا، فافتدوْا منه ثم قدم الشام فقال له خالد بن يزيد: رد عليَّ سلاحي. فأبى عليه فألح عليه خالد، فقال له مروان، وكان فحاشا[2]: يا بن رطبة[3] الإست.

قال: فدخل إلى أمه فبكى عندها وشكا إليها ما قاله مروان على رؤوس أهل الشام، فقالت له: لا عليك فإنه لا يعود إليك بمثلها. فلبث مروان بعد ما قال لخالد ما قال أياما ثم جاء إلى أم خالد، فرقد عندها فأمرت جواريها فطرحن عليه الشوادك[4] ثم غطته حتى قتلته، ثم خرجن فصحن وشققن ثيابهن: يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين، ثم قام عبد الملك بالأمر بعده، فقال لعاتكة أم خالد: والله لولا أن يقول الناس إني قتلت بأبي امرأة لقتلتك.

---

[1]- إربك: مرادك وغايتك.

[2]- فحاشا: بذيء الكلام والفعل.

[3]- رطبة: ناعمة لينة.

[4]- الشوادك: كلمة فارسية، وتعنى الأغطية والأوسدة.

لسان نطق وقول صدق

*قال سعيد بن حذاقة: حبس مروانُ بن الحكم وهو والى المدينة غلاما من بنى ليـث في جناية جناها، فأتته جدة الغلام أم أبيه وهى أم سنان بنت خيثمة ابن خرشة المذحجية فكلمته في الغلام، فأغلظ لها مروان. فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها فقـال لهـا: مرحبا يا ابنة خيثمة ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تشتمينا وتحضين علينا عدونا؟

قالت: إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة، وأعلاما ظاهرة، وأحلاما وافرة، لا يجهلون بعد علم ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سـنّ آبـاؤه لأنت.

قال: صدقت نحن كذلك فكيف قولك:

عزبَ الرّقادُ فمُقلتي لا ترقُدُ ... والليلُ يصدرُ بالهموم ويُوردِ

يا آل مُذحجَ لا تُقامَ فسمِّروا ... إن العدوّ لآلِ أحمدَ يقصدُ

هذا عليَ كالهلال تحُفُّة ... وسطَ السماء من الكوكب أسْعُدُ

خيرُ الخلائق وابن عمِّ محمد ... إنْ يهدِكم بالنور منه تهتدوا

مازال مُذ شهِدَ الحروبَ مظفَّرا ... والنصر فوق لوائهما يفقدُ

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنا خلفا بعده.

فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين وهى القائلة:

إمَّا هلكْتَ أبا الحسين فلـم تَزَل ... بالحق تُعْرَف هادياً مهـدياً

فاذهب عليك صلاةُ ربك ما دعتْ ... فوق الغصون حمامةٌ قمرياً

قدْ كنْتُ بعد محمـد خلفـاً ... كما أوصى بنا فكنت وفيـّا

فاليومَ لا خلفٌ يُؤمَّلُ بعـدَهُ ... هيهات نأملُ بعـده إنسيَّـا

قالت: يا أمير المؤمنين لسان نطق وقول صدق، ولئن تحقق فيك ما ظننا فحظك أوفر، والله ما ورائك الشنان[1] في قلوب المسلمين إلا هؤلاء فادحض مقالتهم وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قربا ومن المؤمنين حبا.

قال: وإنك لتقولين ذلك؟

قالت: سبحان اللـه والله ما مثلك مُدح بباطل ولا اعتذار إليه يكذب، وإنك لتعلم ذلـك من رأينا وضمير قلوبنا كان، والله علي أحبّ إلينا منك وأنت أحبّ إلينا من غيرك.

---

[1]- الشنان: المبغض.

قال: ممن؟

قالت: من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص.

قال: وبِمَ استحققْتُ ذلك عندك؟

قالت: بسعَةِ حلمك وكريم عفوك.

قال: فإنهما يطمعان في ذلك.

قالت: هما والله من الرأي على ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله.

قال: والله لقد قاربت فما حاجتك؟

قالت: يا أمير المؤمنين إن مروان تبَنَّك[1] بالمدينة تبنك من لا يريد منها البَراح، لا يحكم بعدل ولا يقضي بسُنَة، يتتبع عثرات المسلمين، ويكشف عورات المؤمنين حبس ابن ابني فأتيته، فقال كيت وكيت فألقمته أخشن من الحجر وألعقته أمر من الصاب[2]، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة، وقلت: لِمَ لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه؟ فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظرا وعليه معديا.

قال: صدقت، لا أسألك عن ذنبه والقيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه.

قالت: يا أمير المؤمنين وإني لي بالرجعة وقد نفذ زادي وكلّت راحلتي؟ فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم[3].

قد ملكت فاصنع ما أمرك الله به

*عن الهيثم بن عُدّى الطائي عن الشعبي، قال: قال لي شريح[4]: يا شعبي عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولا. قال: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهرا، فمررت بدورهم، فإذا أنا بعجوز على باب الدار وإلى جنبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري، فعدلت فاستسقيت وما بي من عطش، فقالت: أي الشراب أحبّ إليك؟

فقلت ما تيسر.

قالت: ويحك يا جارية! ائتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريبا.

قلت: مَنْ هذه الجارية؟

---

[1]– تبنك: أقام.

[2]– الصاب: شجر مرّ، مفردها صابة.

[3]– العقد الفريد لابن عبد ربه.

[4]– هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم، قاضي الكوفة، ويُقال شريح بن شراحيل، ويُقال هو من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن، ويُقال له صحبة، ولم يصح، بل هو ممن أسلم في حياة النبي وانتقل من اليمن زمن الصديق رضي الله عنه، مات سنة ٧٨ هـ – أنظر سير "أعلام النبلاء" للذهبي (ج٤ ص١٠٠ ،ترجمة ٣٢).

قالت: هذه زينب ابنة جرير إحدى نساء بنى حنظلة.

قلت: فارغة هي أم مشغولة.

قالت: بل فارغة.

قلت: زوجينها.

قالت: إن كنت لها كُفْئا، ولم تقل كُفْوا، وهى لغة تميم.

فمضيت إلى المنزل فذهبت لأقيل[١]، فامتنعت منى القائلة[٢]. فلمَّا صليت الظهر، أخذت بيدي إخواني من القرَّاء الأشراف، علقمة والأسود والمسيب وموسى بن عرفطة، ومضيت أريد عمها، فاستقبل، فقال يا أبا أمية حاجتك؟ قلت: زينب بنت أخيك. قال: ما بها رغبة عنك فأنكحنيها.

فلمَّا صارت في حبالى ندمتُ، وقلت: أي شيء صنعت بنساء من بنى تميم؟ وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا ولكن أضمها إليَّ فإن رأيت ما أحب، وإلا كان ذلك، فلو رأيتني يا شعبي وقد أقبل نساؤهم يهدينها حتى أُدخلت عليَّ، فقلت: إنَّ من السُنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلى ركعتين فيسأل الله من خيرها ويعوذ به من شرّها. فصليت وسلّمت فإذا هي من خلفي تصلى بصلاتي، فلمَّا قضيت صلاتي أتتني جواريها فأخذن ثيابي وألبسنني ملحفة قد صُبغت في عكر العصفر[٣]. فلمّا خلا البيت دنوت منها فمددت يدي إلى ناحيتها، فقالت: على رسلك أبا أمية! كما أنت! ثم قالت:

"الحمد لله، أحمده وأستعينه وأصلى على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبيِّن ما تحب فآتيه، وما تكره فأزدجر عنه.. وقالت: إنه قد كان لك في قومك منكح، وفي قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمرا كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به (إمساك بمعروف أو تسريحٌ بإحسان[٤]) أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك".

قال: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمده وأستعينه وأصلى على النبي وآله وأسلم، وبعد فإنك قد قلت كلاما أن تثبتى عليه يكن ذلك حظك، وأن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تُفرِّقى، وما رأيت من حسنة فانشريها وما رأيت من سيئة فاستريها. وقالت: شيئا لم أذكره: كيف محبتك لزيارة الأهل؟

قلت: ما أحب أن يملني أصهاري.

---

[١]- أقيل: أنام.

[٢]- القائلة: النوم بعد طعام الغذاء.

[٣]- العصفر: نبات أصفر اللون يُستخرج منه طلاء.

[٤]- سورة البقرة، الآية (٢٢٩).

قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك أذن لهم، ومن تكرهه أكرهه.

قلت: بنو فلان قوم صالحون وبنو فلان قوم سوء. قال: فبت يا شعبى بأنعم ليلة، ومكثت معي حولاً لا أرى إلا ما أحب. فلمَّا كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار، فقلت مَنْ هذه؟ قالوا: فلانة خَتَنُك[1] فسُرى عنى ما كنت أجد، فلمَّا جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، وقلت: وعليك السلام، مَنْ أنتِ؟

قالت: أنا فلانة ختنك.

قلت: قربك الله.

قالت: كيف رأيت زوجتك؟

قلت: خير زوجة.

فقالت لي: يا أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالا منها في حالتين، اذا ولدت غلاما أو حظيت عند زوجها، فإن رابك ريب فعليك بالسوط، فوالله ما جاز الرجال في بيتهم شرا من المرأة المدللة.

قلت: أما والله، لقد أدبت فأحسنت الأدب، ورضْت فأحسنت الرياضة[2].

قالت: تحبُّ أن يزورك أختانُك؟

قلت: متى شاؤوا.

قال: فكانت تأتيني في رأس كل حول توصيني تلك الوصية.

فمكثت معى عشرين سنة لم أعتب عليها في شئ إلا مرة واحدة وكنت لها ظالما: أخذ المؤذن في الإقامة بعدما صليت ركعتي الفجر، وكنت إمام الحي، فإذا بعقرب تدب فأخذت الإناء فأكفأته عليها، ثم قلت: يا زينب لا تتحركى حتى آتى! فلو شهدتنى يا شعبى وقد صليت ورجعت، فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها، فدعوت بالكست والملح، فجعلت أمغث أصبعها وأقرأ عليها بالحمد والمعوذتين، وكان لى جار من كندة يفزع امرأته ويضربها فقلت في ذلك:

رأيت رجالا يضربون نساءهم ... فشُلت يميني حين أضرب زينبا
أأضربُها في غير ذنب أتت به ... فما العدل من ضرب من ليس مذنبا
فزينبُ شمسُ والنساء كوكب ... إذا طلعتْ لم تُبْد منهن كوكبا[3]

---

[1]- ختنك: أم الحليلة أو الزوجة.

[2]- الرياضة: التربية.

[3]- العقد الفريد لابن عبد ربه ج٦ ص ٩٥-٩٧، وانظر: "نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء" ج١ ص١٥٣ .

بين القلب والعقل

*كانت الخيزران بنت عطاء من جواري الخليفة المهدى العباس فأعتقها وتزوجهـــا، فولدت له الهادي وهارون الرشيد. وكانت الخيزران ملكة حازمة متفقهة أخذت الفقه من الإمام الأوزاعي.

وفي ظل حبّ زوجها المهدى لها، أخذت تجمع حولها الأنصار والمؤيدين مـــن قـــواد ووزراء وتجزل لهم العطاء وتقضى لهم الحوائج حتى أصبحت ذات نفوذ عظـــيم وســـلطان قاهر. فقد كانت تعشق السلطة وتحب السلطان، ومن ثمَّ انفردت بكبار الأمور وأخذت المواكب تغدو وتروح إلى بابها.

وفي يوم صرَّح لها المهدى أنه يريد أن يوصى بالخلافة من بعده لابنهـــا الهـــادي. فكرت الخيزران في الأمر مليا فأحست بقلب الأم وذكاء المرأة أنها ستكون في ظل ولاية ابنها هارون الرشيد الملكة صاحبة النفوذ كما هي في ظل زوجها الخليفة المهدى، ولهذا فلابـــد أن تحول الأمر من الهادي إلى أخيه هارون الرشيد. ويالها من امرأة، فهي لم تكتفِ بأن حولـــت الخلافة إلى ابنيها دون سائر أبناء الخليفة من زوجاته الأخريات، بل ترغب أن تجعل الخلافة لمن تحب وتريد. ومازالت بالخليفة المهدى حتى أخذ بعد تردد في تعديل البيعة، وكتب إلـــى الهادي الذي كان في جرجان بالرجوع. ويحس الهادي أن في الأمر شيئا فيتباطأ، ولا ينتظـــر المهدى تحت إلحاح الخيزران فيركب إلى جرجان فيوافيه الأجل المحتوم في الطريق سنة ٧٨. هـــ، وهو في الثانية والأربعين من العمر.

وفاز الهادي بالخلافة، فأيقنت أنه سيكون عقبة في استمرار نفوذها وسلطانها، وأنهـــا لن تستطيع أن تنتظر حتى تنتقل الخلافة إلى هارون الرشيد بموت الهادي، وفي ذات الوقـــت فهي تريد أن تبقى هيبتها في الحكم ويظل أنصارها في مناصبهم، وأن تبقى المواكـــب تغـــدو وتروح إلى بابها. فبدأت تدبر خلع الهادي الذي أوعز إليه المغرضون أن ينقل ولايـــة العهـــد التي أقرها وأشهد عليها أبوه لأخيه هارون الرشيد من بعده إلى ابنه جعفر، وأيَّده فـــي ذلـــك القواد ورجال القصر، ودسوا رجالهم في المساجد ليشهروا بهارون الرشيد ويظهـــروا عـــدم الرضا عليه. وتجنَّب الناسُ الرشيد، وكاد أن يقبع في بيته ويرض بحياته مع زوجته. ولكـــن خالدا بن خالد، أحد أنصاره، منعه وطلب منه أن يتمسك بحقه في الخلافة، وأشار عليه بـــأن يغادر عاصمة الخلافة، وأن يطيل الإقامة بعيدا، فخرج الرشيد إلى قصر (مقاتل) فأقـــام بـــه أربعين يوما، حتى ساورت الهادي الشكوك، فجعل يكتب إليه بالقدوم فيتباطـــأ عليـــه. وفـــي غضون ذلك أقنع يحيى مؤدب الرشيد الخليفة الهادي بأنه إذا حوّل الخلافة إلى ولـــده جعفـــر الصغير فإنه لا يأمن أن ينتهز الفرصة أعمامه وسمَّاهم له فينقضوا علـــى الغـــلام وتـــضيع

الخلافة من بيت المهدى والدهم. وأوغر المغرضون قلب الخليفة على أخيه الرشيد، فـــانتظر فرصة للقضاء عليه إلا أنه رأى من الحكمة أن يتحول إلى العامل الرئيسي فـــي اضــــطراب الأمور وهو أمه ونفوذها.

وتبدأ المواجهة بين الأم وولدها الخليفة الهادي حينما أرسلت إليه برقعة تطلب فيها أن يولى خاله (الغطريف) ولاية اليمن فوعدها بذلك، فكتبت إليه تستعجله، فأعاد إليهـــا رســـولها يقول لها: خيري خالي بين اليمن وطلاق ابنته أو بقائي عليها. وأخطأ الرســـول فـــي تبليـــغ الرسالة فعاد إليه يقول: ولاية اليمن، فطلَّق الهادي زوجته. ثم طلبت منه حاجة أخرى فاعتـــل عليها بعلة، فقالت: لابد من إجابتي، قال: لن أفعل، قالت: فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب الهادي وقال: ويلٌ لابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها لأقضيها لك، قالـــت: إذن والله لا أسال حاجة أبدا، قال: إذا، والله لا أبالي. فقامت مغضبة، فقال: مكانك فاســـتوعبي كلامي والله وإلا نفيت قرابتي من رسول الله صلي الله عليه وسلم: لئن بلغني أنه وقف علـــى بابك أحد من قؤادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، فمـــن شـــاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم، أما لك مغزل يـــشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجـــة مـــسلم ولا ذمـــي. فانصرفت ولم تتكلم.

ثم جمع الهادي قواده وقال لهم: ما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحـــديثها؟ فلمَّـــا سمعوا ذلك انقطعوا عن الخيزران، وعادت إلى قصرها تأكل الغيرة قلبها. وزاد الأمر ســـوءا أن الهادي حبس يحيي بن خالد مؤدب هارون الرشيد، وأمر بقتله في صباح اليوم التالي، فلمَّا بلغ الخيزران ذلك لم تستطع الصبر، فأمرت جواريها في قصر الهادي أن يـــسامروا ابنهـــا، ويزيدوا عليه الشراب حتى إذا غلبه النوم وضعن المساند على وجهه حتى مات خنقا، وبعثت الخيزران بكتاب إلى يحي بن خالد في سجنه تعلمه أن الرجـــل "ميـــت لا محالـــة و تـــأمره بالإستعداد لما ينبغي". فاستعد يحيي للأمر، وهيَّأ الكتب (الرسائل) إلى عمال الأقـــاليم بوفـــاة الهادي وتولية الرشيد.

ولمَّا حضرت الهادي الوفاة وجاءها الرسول بذلك قالت: وما أصنع به؟، فقالت لهـــا إحدى وصيفاتها: قومي إلى ابنك أيتها الحرة فليس هذا وقت عتاب ولا غضب.

وانتهت المعركة الخفية بين الخيزران وولدها الهادي بانتصارها وتولية هارون الرشيد الخلافة.

ولمَّا توفيت الخيزران في سنة ١٧٣ هـــ، خرج هارون الرشيد خلف جنازتها وهـــو حافٍ يعدو في الطين ويمسك بقوائم السرير الذي يحمل جثة أمه حتى دخل مقابر قريش فغسل رجليه، ودعا بخفٍ قلَبَه وصلّى عليها، ودخل قبرها، فلمَّا خرج من المقبرة وُضع له كرســـي

فجلس عليه ودعا الفضل بن الربيع ودفع له خاتمه الذي يوقع به على شئون الدولة، وقال له: إني كنت أهمُّ أن أوليك فتمنعني أمي فأطيعها.

المرضعة وهارون الرشيد

*من ربات الفصاحة والبلاغة والجرأة "أم جعفر فاطمة بنت محمد" مرضعة الخليفة هارون الرشيد مع ابنها جعفر، فاعتبرها بمثابة أمه وحلف على نفسه أن لا يحجبها ولا تستشفعه إلا قبِلَ شفاعتها وآلت عليه أم جعفر أن لا يحول بينها حائل إذا أرادت الدخول عليها فكان لها ذلك.

ولكن لمّا فتك هارون الرشيد بأسرة البرامكة وقتل جعفرا وسجن زوجها، طلبت الإذن بالدخول على الرشيد وأرسلت الرسل إليه، فلم يأذن لها ولم يقرر في أمرها شيئا. فلمّا يئست خرجت حافية كاشفة وجهها حتى صارت بباب قصره. فلمّا رآها الحاجب دخل على الرشيد فقال: مرضعة أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد.

فقال له الرشيد: ويحك أجاءت حافية؟

قال: نعم.

قال: أدخلها، فرب كبد كريم غذتها، وكربة فرجتها، وعورة سترتها.

فلمّا دخلت ونظر إليها داخلة محتفية، قام محتفيا[1] حتى تلقاها قبل أن تصل لمجلسه، فأكبَّ على تقبيل رأسها ومواضع ثديها، ثم أجلسها معه.

فقالت: يا أمير المؤمنين، أيعدو علينا الزمان ويجفوا خوفا لك الإخوان ويحرضك علينا البهتان ويوسوس لك بأذانا الشيطان، وقد ربيتك وأخذت برضاعي لك الأمان من دهري.

فقال لها: وما ذلك يا أمّ الرشيد؟

قالت له: ظئرك[2]، وأبوك بعد أبيك.

فقال: يا أمّ الرشيد، قدر سبق وقضاء حسم وغضب من الله نزل.

قالت: يا أمير المؤمنين، يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

فقال الرشيد: صدقت! فهذا مما لا يمحوه الله.

فقالت: الغيب محجوب عن النبيين، فكيف عنك يا أمير المؤمنين.

فأطرق الرشيد يسيرا، ثم قال:

---

[1] – محتفيا: حافيا.

[2] – ظئرك: المرضعة لغير ولدها، ويطلق على الرجل الذي يربي زوجته ولد غيرها.

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفت كل تميمة لا تنفع

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين، وقد قيل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد   ذخرا يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله تعالى: "

"والكاظمين الغيظ و العافين عن الناس والله يحب المحسنين[1]".

فأطرق هارون قليلا، ثم قال:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد

إليه بوجهي آخر الدهر تقبل

فقالت: يا أمير المؤمنين، وهو يقول:

ستقطع الدنيا إذا قطعتني   يمينك فانظر بأي كف تبذل[2]

قال الرشيد: رضيت.

فقالت: يا أمير المؤمنين، هبه لله تعالى، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "مَنْ ترك شيئا لله كافأه الله".

فأطرق الرشيد مليا، ثم رفع رأسه وهو يقول: لله الأمر من قبل ومن بعد. قالت: يا أمير المؤمنين، "ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم[3]". واذكر يا أمير المؤمنين يمينك التي حلفتها لئن لشفعت عندك لتقبلن شفاعتي.

قال: واذكري يا أمّ الرشيد عهدك ألا تتشفعي لمقترف ذنبا.. فلما رأته صرَّح بمنعها وهرب من مطلبها، أخرجت له حُقا من زمردة خضراء فوضعته بين يديه.

فقال الرشيد: ما هذا؟

ففتحت عنه قفلا من ذهب، فأخرجت منه خفضة[4] وذوائبه وثناياه، وقد غمست جميع ذلك في المسك، فقالت: يا أمير المؤمنين، استشفع إليك واستعين بالله عليك وبما عندي من كريم جسدك وطيب جوارحك عفوا ليحيى عبدك.

فأخذ هارون ذلك ولثمه ثم بكى بكاء شديدا وبكى من كان في المجلس وظنّ الجميع أن الرحمة قد عادت لقلب الرشيد وذهب البشير إلى يحيى في السجن. فلمّا أفاق أعاد جميع ذلك في الحق، وقال لها: حسن أن حفظت الوديعة.

---

[1]- سورة آل عمران، الآية (١٣٤).

[2]- تريد بقطع اليمين العهد الذي بينها وبين الرشيد.

[3]- سورة الروم، الآية (٥).

[4]- الخفضة: الجلدة التي تُقطع عند الختان.

قالت: وأهل للمكافأة أنتَ يا أمير المؤمنين؟

فسكت ودفع الحق، وقال: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. قالت: يا أمير المؤمنين، قال الله عز وجل: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل[1]". وقال: "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم[2]".

قال: وما ذاك يا أمّ الرشيد؟

قالت: ما أقسمت يا أمير المؤمنين أن لا يحجبك عني حاجب.

فقال لها: يا أمّ الرشيد، أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم، "يقصد زوجها يحيى وبقيه أبنائه وأبناء جعفر"؟

قالت: بلى يا أمير المؤمنين، إنك لأعز عليَّ، وهم أحبّ إليَّ.

قال: إذن فتحكمي في غيرهم.

قالت: قد وهبته لكِ وجعلتك في حِلّ منه. ثم قامت أمّ جعفر عنه وخرجت هائمة على وجهها في طرقات القصر ولم تعد إليه.

أرجو أن يغفر الله لكما

*لم تشهد سيدة جليلة ذات يد طولي في الحضارة والعمران في الجاه و العظمة والسلطان ما شهدته زبيدة بنت جعفر زوجة الخليفة هارون الرشيد وأم الخليفة محمد الأمين، الذي أحبته حبا جما جعلها تهيَّأ له كل العوامل التي تؤهله لعرش الخلافة. ولكن وحين اقتنعت بأفضلية المأمون للخلافة قالت لهارون: يا أمير المؤمنين ابنك أحق بما تريد وأولى بما لديك.. فقال هارون: فإذا أقررت بالحق، وأنصفت مما رأيت، فأنا أعهد إلى ابني ثم إلى ابنك بعد. فكتب عهد عبد الله المأمون ثم محمد الأمين بعد.

ولمَّا قتل عبد الله المأمون أخاه محمد بن زبيدة، أرسلت أمه زبيدة إلى أبي العتاهية يقول أبياتا على لسانها للمأمون فقال:

ألا إنَّ ريْبَ الدهر يُدنى ويُبعد	وللدهرُ أيامٌ تُذَمُّ وتُحمَدُ
أقول لريْب الدهر إن ذهبت	يد فقدْ بقيت والحمد لله لي يَدُ
إذا بقى المأمونُ لي فالرشيد لي	ولي جعفرٌ، لم يهلكا، ومحمدُ

وكتبتْ إليه من قوله:

---

[1]- سورة النساء، الآية (٤).

[2]- سورة النحل، الآية (٩١).

لخير إمامٍ قام من خير معشـــر	وأكْرمِ بسَّام على عـــــود منبَـــــر
كتبتُ وعيني تستهلُّ دموعَهـــا	إليك ابن يَعْلى من دموعي وَمَحجري
فجِعنا بأدنى الناس منك قرابـــةً	ومن زلَّ عن كبدي فقلَّ تصبـــُّـري
أتى طاهرٌ لا طهَّر الله طاهـــراً	وما طاهر في فعله بمُطهـــّـــــــــر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً	وأنهَبَ أموالي وخـــــــرَّب أدْوري
وعزّ على هارون ما قد لقيتـــُه	وما نابني من ناقص الخلْق أعـــور

فلمَّا نظر المأمون إلى كتابها وجَّه إليها بحباء[1] جزيل، وكتب إليها يسألها القدوم عليه، فلم تأته في ذلك الوقت وقبلت منه ما وجَّه به إليها، فلما صارت إليه بعد ذلك، قال لهـــا: مَـــنْ قائل الأبيات؟

قالت: أبو العتاهية.

قال: وكم أمرت له؟

قالت: عشرين ألف درهم.

قال المأمون: وقد أمرنا له بمثل ذلك. واعتذر إليها من قتل أخيه محمد، وقـــال لهـــا: لست صاحبه ولا قاتله.

فقالت: يا أمير المؤمنين، إن لكما يوما تجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله... ثم قالت: أهنئك بخلافة قد هنَّأت بها نفسي عنك قبل أن أراك، ولئن قد فقدت ابنا خليفـــة، فقد عُوضت عنه ابنا خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض الملك مثلك، ولا ثكلتـــك أم مـــلأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجرا على ما أخذ وإمتاعا بما عوض.

وكان لزبيدة بنت جعفر أثارا جليلة انتفع بها العالم خير انتفاع، فحين حجّت إلى بيت الله الحرام في سنة ١٨٦ هجرية، وشاهدت ما يعانيه أهل مكة من المشقة في الحصول علـــى الماء حيث كان الراوية عندهم بدينار، أسالت الماء عشرة أميال بحطّ الجبال ونحت الصخر، حتى غلغلته من الحِل إلى الحرم، ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبـــل ووعر، وعُرفت هذه العين بعين الشماش، وكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصي ألـــف ألف وسبعمائة ألف دينار. ويُنسب إلى زبيدة مسجد زبيدة أم جعفر ببغداد. ويُنسب إليها أيضا المُحْدَث؛ وهو منزل في طريق مكة فيه قصر وقباب متفرقة بركة وبئران ماؤهما عذب.

[1]- حباء: عطاء.

وجاء في وصف (اليافعي) لهذا المشروع: إن آثارها باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يتنزه برؤيتها، على يمين الذاهب إلى منى مكة ذات بنيان محكم في الجبال تقصر العبارة عن وصف حسنه.

حق الشرع وحق الأدب

*أتت امرأة يوما "شريك بن عبد الله"، قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي!

قال: منْ ظلمك؟

قالت: الأمير موسى بن عيسى عم أمير المؤمنين. كان لي بستان على شاطيء الفرات فيه نخيل ورثته عن أبي، وقاسمت أخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطا، وجعلت فيه رجلا فارسيا يحفظ النخل ويقوم به. فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع أخوتي، وساومني ورغبني، فلم أبعه. فلمَّا كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط- فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئا.

فقال القاضي: يا غلام أحضر طينة، فأحضرها، فختمها ودخل على موسى، وقال له: قد أعدي القاضي عليك وهذه ختمه.

فقال: ادع لي صاحب الشرطة، فدعا به فقال له: امض إلى شريك القاضي وقل: يا سبحان الله! ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها عليَّ.

قال صاحب الشرطة: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني من ذلك.

فقال: امض.. ويلك!!

فخرج الرجل وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا إلى حبس القاضي بساطا وفراشا وما تدعو الحاجة إليه. ثم مضى إلى القاضي. فلمَّا وقف بين يديه أدَّى الرسالة.

فقال القاضي لغلامه: خذ بيده وضعه في الحبس.

فقال صاحب الشرطة: والله لقد علمت أنك تحبسني، فأحضرت ما أحتاج إليه في الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر، فوجَّه الحاجب إليه، وقال له: رسولٌ أدَّى الرسالة أي شيء عليه؟

فقال شريك القاضي: اذهبوا به إلى رفيقه في الحبس، فحُبس.

فلمَّا صلَّى الأمير العصر بعث إلى اسحاق بن الصباح الأشقي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك، وقال لهم: أبلغوه السلام واعلموه أنه استخف بي، وأني لست كالعامة، فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد العصر، فأبلغوه الرسالة.

فلمَّا انقضى كلامهم قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في جمع الناس تكلموني؟! من هنا من فتيان الحي؟ فأجابه جماعة من الفتيان، فقال ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء وليذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس.

قالوا له: أجادٌ أنت؟

قال: حتى لا تعودوا لرسالة ظالم، فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى في الليلة، وذهب إلى السجن، وفتح الباب وأخرجهم كلهم. فلمَّا كان من الغد وجاء شريك للقضاء، جاءه السجَّان وأخبره بالأمر. فدعا بالقمطر فختمه ووجَّه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذا تقلدناه لهم. ومضى نحو قنطرة الكوفة متوجها إلى بغداد.

وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى فركب في موكبه، فلحقه وجعل يناشده الله ويقول: يا أبا عبد الله تثبَّت، انظر إخواني أتحبسهم؟ دعْ أعواني.

قال شريك: نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه، ولست ببارح أو يردوا جميعا وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى فاستعفيته مما قلدني.

فأمر موسى بردهم جميعا إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابته بين يدي إلى مجلس الحكم، فمروا به بين يديه حتى إذا دخل المسجد وجلس في مجلس القضاء، فجاءت المرأة المتظلمة. فقال: هذا خصمك قد حضر.

فقال موسى – وهو مع المرأة بين يديه: قبل كل أمر، أنا قد حضرت أولئك يخرجون من الحبس.

فقال القاضي شريك: أما الآن فنعم. أخرجوهم من الحبس، ثم قال: ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة؟

قال: صدقت.

قال: ترد ما أخذت منها وتبنى لها حائطها سريعا كما كان.

قال الأمير: أفعل ذلك.

ثم قال شريك للمرأة: أبقي لك عليه دعوى؟

قالت: لا وبارك الله عليك وجزاك خيرا.

فقال: قومي، فقامت من مجلسه. فلمَّا فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى والأمير وأجلسه في مجلسه، وقال: السلام عليك أيها الأمير، ذاك الفعل حق الشرع وهذا القول حق الأدب، فقام الأمير، وانصرف إلى مجلسه.

امرأة المسوّر

*جاء في كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه، قال، قال الزبير بن بكار: كان المسوّر بن مخرمة ذا مال كثير، فأسرع فيه على إخوانه، فذهب فسأل[1] امرأته -وكانت موسرة- فمنعته وبخلت عليه، فخرج يريد بعض خلفاء بنى أمية منتجعا، فلمَّا كان ببعض الطريق نزل ماء يُقال له بلاكث فقال مغنيا:

بينما نحن من بلاكث بالقا	ع سراعاً والعيسُ تهوى هُويَّا
خَطرت خطرةً على القلب من ذكـــ	راك وهناً فما استطعت مُضيَّا
قلتُ لبّيك إذ دعاني لك الشّـــ	قُ، وللحاديين كُرّا المطيّا

فقال: هن بُدنٌ إن لم تكرَّها رواجع.

قال له: قد أشَرفْنَ على أمير المؤمنين.

قال: قال هن بُدنٌ إن لم تكرّها رواجع! فانصرف ودخل المصلى، فوجد رجال قريش حلقاً يتحدثون، فقالوا له: زاد خيرا!

فقال: زاد خير! حتى انتهى إلى داره، فقالت له امرأته: زاد خير! فأنشدت الأبيات، قالت: كل ما أملك في سبيل الله إن لم أشاطرك مالي، فشاطَرَتْه مالها.

إنا صابرون

*قيل لما ظلم أحمد بن طولون[2] قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة[3] يشكونه إليها، فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد. فكتبت رقعة وقفت بها في طريقه، وقالت: يا أحمد يا ابن طولون. فلمَّا رآها عرفها، فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة قرأها، فإذا فيها ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم فعسفتم، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم

---

[1]- أي طلب منها مالا.

[2]- هو أحمد بن طولون، أبو العباس، الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور، تركي مستعرب، كان شجاعا جوادا حسن السيرة، موصوفا بالشدة على خصومه وكثرة الاثخان والفتك فيمن عصاه. بنى الجامع المنسوب إليه بالقاهرة، ومن آثاره قلعة يافا بفلسطين، ولى إمرة الثغور ودمشق ثم مصر، وكان حاد الخلق، سفك كثيرا من الدماء في مصر والشام، تُوفى سنة (٢٧٠ه – ٨٨٤ م). انظر (وفيات الأعيان) لإبن خلكان (ج١ ص١٧٣ – ١٧٤) ترجمة (٧١) و "سير أعلام النبلاء" للحافظ الذهبي (١٣ /٩٤) ترجمة (٥٣).

[3]- السيدة نفيسة: هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن علي بن أبى طالب، صاحبة المشهد المعروف بمصر، تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث ، ولدت بمكة سنة (١٤٥هـ) ونشأت في المدنية، حجت ثلاثين حجة ، وكانت تحفظ القران، وسمّع عليها الإمام الشافعي، وكان العلماء يزورنها ويأخذون عنها، وهي أمية، ولكنها سمعت الكثير من الحديث، توفيت في مصر سنة (٢٠٨هـ -٨٢٤ م). انظر (الأعـلام) للزركلي ج٨ ص ٤٤.

هذا، وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموهـا، وأكبـاد جوعتموها، وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنـا صابرون، وجوروا فإنا إلى الله مستجيرون، واظلموا فإنا بالله متظلمون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[1]). قال: فعدل لوقته[2].

كفاح من أجل السلطة

*عندما تولى الحكم المستنصر بالله تاسع ملوك بنى أمية في الأندلس الخلافـة أعلـن زواجه بجاريته صبيحة أو صُبْح التي أنجبت منه ولدين، وازدادت مكانتها عنده.

وأبدت الزوجة حِكمةً وكياسةً في إدارة شئون الحكم وأثبتت جدارة وحِنكة، فأشـركها الخليفة معه علنا في الحكم ومنحها سلطات واسعة حتى أصبحت السلطان الحقيقي للبلاد.

ونهضت الزوجة بأعباء الحكم وعيَّن زوجها الخليفة مـساعدا لهـا يقـوم بتحريـر أوامرها، واختار لها كاتبا شابا ذكيا طموحا ليستطيع القيام بكل هذه المهام هو محمد بن أبـى عامر الذي عهدت إليه بمهمة إدارة شئون ممتلكاتها ومخصصات ابنها هشام ولى العهد، فبذل الرجل أقصى جهده ليكسب ثقتها فيه كمستشار لها، وقدَّم لها من الهدايا كل نفـيس. وازدادت ثقة الخليفة في محمد بن أبي عامر فعهد إليه بمهمة السفر إلى مراكش للتفتيش على أموال قائد الجيش هناك الأمير غالب وكذلك مراقبة بيت المال فأنجز مهمته على خير وجه.

ولمَّا اقترب الأجل المحتوم وشارف الخليفة على الموت، دعت الملكة صـبيحة إلـى مجلس كبير ضمّ أشراف الأندلس جميعا قرأ فيه الخليفة عليهم صيغة مبياعته لإبنه هشام ولى العهد بالخلافة من بعده، فقبلوا مبايعته خليفة. ومن ثمَّ نجحت الملكة الأم في تفويـت فرصـة الخلافة على شقيقه الخليفة المحتضر وتثبيت ابنها هشام الذي لم يكن يتعـدى عمـره وقـت مبايعته بالخلافة أحد عشر عاما، وبذلك ضمنت صبيحة العيش في كنف خليفة من صلبها هو ابنها الصغير الذي بقى تحت وصايتها بعد موت الخليفة الزوج والأب.

واحتالت صبيحة فنجحت في تدبير مؤامرة تخلصت بها من المغيرة شقيق الخليفـة الراحل ليخلو الجو لها ولابنها. ولكن هيهات هيهات، فإن مستشارها وذراعها الأيمن في كافة خطوات الإصلاح التي أنجزتها محمد بن ابى عامر ثمرة نجاحه، فطغى وتكبر خصوصا بعد أن أحرز نصرا ساحقا على الفرنجة وكسر شوكتهم، مما دفعه إلى التفكير في الإنفراد بالسلطة

---

[1] – سورة الشعراء، الآية (٢٢٧).

[2]– المستطرف ج١ ص١٨٣-١٨٤.

وإدارة شئون البلاد وإبعاد هشام عن منصب الخلافة. ولتحقيق مآربه[1] ودعم مركزه تزوج من إبنة قائد الجيش في مراكش الأمير غالب، فكان ذلك إيذانا بفتور علاقة الود والإعجاب بين صبيحة ومستشارها ثم اشتعال صراع خفي بينها وبينه، وكادت أن تنجح في تدبير مؤامرة للتخلص منه كما فعلت بشقيق الخليفة لولا أن المنية عاجلت أبا عامر، وكأن الحزن دبَّ في أوصالها على فراق أبي عامر فماتت بعده بست سنوات بعد حياة مليئة بالكفاح.

محاباة

*أم المستنصر هي أم الخليفة المستنصر من زوجها الخليفة الفاطمي الظاهر الذي تولى الخلافة وهو في سن السابعة من عمره وظلَّ متبوءا سؤددة الحكم ستين عاما. وأم المستنصر سودانية الأصل مجهولة الأب، أظهرت محاباة وانحيازا لأبناء جلدتها، فصار الجنود منهم والعامة أيضا ذوى حظوة لديها، وبالتالي لدى أبناء الخليفة المستنصر لِما كانت تتمتع به من قوة الشخصية إذ كانت تمسك بزمام الأمور بحنكة وذكاء من قصر اللؤلؤة المطل على النيل، فعمَّ الرخاء أسواق مصر ونعمت البلاد بالأمن والطمأنينة واتسعت أرجاء الدولة اتساعا عظيما.

ولكن حينما أرد الإبن أن يدير دفة الأمور بمعرفته بعيدا عن مشورة أمه وحنكتها عاجله، طالعه السيء بانفصال بلاد المغرب عن الدولة الفاطمية وتلتها بلاد اليمن وحلَّت بمصر في النصف الثاني من سنوات حكمه أزمة مستحكمة أطلق عليها المؤرخون اسم "الشدة العظمى" حتى بيع رغيف الخبز بألف دينار كما ذكر المقريزي في كتابه "إغاثة الأمّة بكشف الغُمَّة"، واضطر الناس أن يأكلوا الكلاب والقطط، بل تَخطَّف بعض الناس بعضهم وبيع لحم الإنسان في الطرقات، كما اضطر الخليفة نفسه أن يبيع كل ممتلكاته وما في القصر اللؤلؤة من محتويات.

استمرت هذه "الشدة العظمى" سبع سنوات وقعت في آخرها فتنة بين الجنود السودانيين ذوى الحظوة لدى أم المستنصر والأتراك إذ حاول أحد الأتراك قتل سوداني من حراس الخليفة، فهجم عليه بعض العبيد وأردوه قتيلا ومن ثمَّ أفلت الزمام من بين يدي أم المستنصر، واندفع الأتراك يغيرون على قصور الحكم وينهبون ما تقع عليه أيديهم من مجوهرات وأحجار كريمة، فعمَّ الخراب سائر البلاد.

وازداد حال الخليفة المستنصر وأمه سوءاً، فبعثت إلى الخليفة العباسي "القائم" تستنجد به، فأرسل رسولا إليها. فلمَّا وصل إلي قصر اللؤلؤة رأى الخليفة جالسا على حصيرة بالية

---

[1]– مآربه: أهدافه.

وفي حالة يُرثى لها مما حزَّ في قلب الرسول فبكى وأمر ناصر الدولة بن حمدان زعيم الأتراك بالكشف عن أحداث الفتنة كما أوصى الخليفة العباسي "القائم" بمنح المستنصر مائة دينار شهريا.

وأراد زعيم الأتراك أن يأمن شر الخليفة المستنصر إذا ما استعاد زمام الأمور فقبض على أمه وصادر أملاكها ولكنها تمكنت من الفرار بمساعدة أعوانها من بني جلدتها هي وبناتها إلى بغداد وتخلت عن ابنها بعد أن كانت السبب الرئيسي في إحداث هذه الفتن وإشعال تلك القلاقل التي كان بإمكانها تفاديها تماما لو خففت من محاباتها لبني جلدتها من السودانيين.

رغيف خبز بألف دينار

*ذكر المقريزي في كتابه "إغاثة الأمّة بكشف الغُمَّة" أنه في أيام المستنصر الفاطمي وقع بمصر الغلاء الذي فحُش أمرُه، وشنع ذكره. وكان أمده سبع سنين، وسببه ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل.

وقد استولى الجوع لعدم القوت حتى بِيع الإردب من القمح بثمانين دينارا، وأُكلت الكلاب والقطط فبيع كلب ليُؤكل بخمسة دنانير. وتزايدت الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا. وكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم حبال فيها كلاليب[1]، فإذا مرَّ بهم أحدٌ ألقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه. وجاء الوزير يوما إلى الخليفة على بغلته، فأكلتها العامة، فشنق طائفة منهم، فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم.

ومن غريب ما وقع أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عُقدا لها قيمته ألف دينار وعرضته على جماعة في أن يعطوها به دقيقا. وكان يُعتَذر إليها إلى أن رحمها بعض الناس وباعها به كيس دقيق. فلمَّا أخذته أعطت بعضه لمن يحمله ويحميه من النهَّابة في الطريق. فلمَّا وصلت إلى باب زويلة تسلمته من الحماة له ومشت قليلا، فتكاثر الناس عليه وانتهبوه نهباً. فأخذت هي أيضا مع الناس من الدقيق ملء يديها لم ينُبها غيره ثم عجنته وشوته، فلمَّا صار قرصة أخذتها معها وتوصلت إلى أحد أبواب باب القصر ووقفت على مكان مرتفع ورفعت القرصة على يديها بحيث يراها الناس ونادت بأعلى صوتها:

"يا أهل القاهرة! ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد اللهُ الناس بأيامه حتى تقومت على هذه الفرصة بألف دينار"!

---

[1]– الكُلاب: حديدة معطوفة الرأس كالمخلب.

فلمَّا وصل المستنصر ذلك الخبر امتعض له، فأحضر الوالي وتهددَّه وتوَّعده مقسما له بالله جلَّت قدرته أنه إن لم يظهر الخبز في الأسواق وينحل السعر ليضربنَّ عُنقه ولينهبنَّ الناس ماله. فخرج الوالي من بين يديه وقد دبَّر حيلة ذكية تبلغ بصاحبها ما يريد. كان من بين المسجونين قوم استحقوا القتل لجنايات ارتكبوها من قبل ولم يكن قد نُفذ فيهم حكم الإعدام، فلمَّا تهدّد المستنصر الوالي على تلك الصورة الحازمة، جمع الوالي عقله إلى دينه، واستخرج حيلة وهى أنه أخرج من الحبس أولئك الذين كانوا قد استحقوا الموت بجناياتهم، ثم أفاض عليهم ثيابا واسعة وعمائم مدورة وطيالس سابلة تُوهم الناس أن هؤلاء من كبار التجار في مصر والقاهرة، ثم جمع تجار الغلة والخبازين والطحانين وعقد لهم مجلسا عظيما ثم أمر بإحضار واحد من أولئك الذين استحقوا القتل فدخل على المجلس في هيئة عظيمة حتى إذا مَثُلَ بين يدي الوالي قال له:

ويلك، وما كفاك أنك خنت السلطان، واستوليت على مال الديوان حتى خرَّبت الأعمال ومَحقْت الغِلال فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعيّة؟ يا غلام اضرب عنقه، فضُربت عنقه في الحال، وتُرك ملقى في المجلس بين يدي الوالي، ثم أمر بإحضار آخر من هؤلاء الجناة، وقال له مِثل ما قال للأول، ثم أمر بضرب عنقه فضُربت عنقه في الحال، وتُرك في المجلس على حاله.

فقام إليه الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين قائلين: "أيها الأمير في بعض ما جرى كفاية، ونحن نخرج بالغلة، وندير الطواحين، ونعمر الأسواق بالخبز، ونرخص الأسعار على الناس، ونبيع الخبز رطلا بدرهم.

ولكنه أبى عليهم ذلك حتى قبلوا أن يبيعوا الرطلين بدرهم، فرضى منهم بذلك بعد التوسل والضراعة إليه، ثم وفوا بما اشترط. وتدارك الله الخلق وسكنت الفتنة وانكشفت الشدة وتلاحق الخبز.

الحجاب المنيع ملكه المسلمين

*تعرضت مصر في أواخر حُكم الصالح نجم الدين أيوب للحرب الصليبية. وأثناء إحدى الحملات الصليبية على مدينة دمياط توفي الصالح أيوب، فأبدت شجرة الدر زوجته وأم ابنه "خليل" كفاءة عالية في إدارة زمام الأمور إذ أنها أخفت خبر موته عن الجيش، واستدعت طبيبه ليتم غسله ووضعه في تابوت لدفنه باليل في غيبة الأمر عن الأمراء، وأشاعت بينهم أن السلطان مريض وممنوعة زيارته بناء على توصيات طبيبه، وظلت تصدر الأوامر السلطانية ممهورة بعلامة السلطان لمدة ٧٥ يوما إلى أن وصل ابن زوجها توران شاه من الشام بحصن كيفا، وعبَّأت المشاعر والأذهان بين رجال الدولة والأمراء والجنود لحلف يمين الولاء لابن

زوجها حين وصوله وكذلك خطباء المساجد دعوا له تهيئة له ليخلف أباه بل إنها أشرفت على وضع الخطة الحربية وتنفيذها ضد الصليبين الغزاة إلى أن جاء توران شاه وتسلَّم زمام الأمور لينجح في صد الغزاة عن مواصلة زحفهم من المنصورة إلى القاهرة ويحقق نصر المسلمين.

ولكن لم يلبث توران شاه أن فقد حب الناس بعد فترة قصيرة من توليه الحكم لأنه كان خشن الطباع، ميّالا إلى العزلة، كما أنكر فضل شجرة الدر، وانقلب عليها ساخطا مما دفعها إلى الهرب إلى بيت المقدس خوفا على حياتها، بل إنه أرسل إليها من يهددها ويتهمها بنهب أموال أبيه وجواهره.

ونجح الأمراء الساخطون في قتل توران شاه ونادوا بشجرة الدر سلطانة على مصر، وخُطب لها على منابر مصر والقاهرة وكان الدعاء لها بالخطبة: (اللهم أدم السلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك خليل). كما نُقش اسمها على النقود هكذا: (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين). ومما يدل على ذكاء وحصافة شجرة الدر تعمدها أن تنسب نفسها إلى ابنها المتوفى "أم خليل" لإيجاد صلة دم تتيح لها شرعية وراثة الملك عن الصالح نجم الدين.

واتخذت لها أيضا على نقودها لقب "المستعصمية " نسبة إلى الخليفة العباسي "المستعصم" استرضاء له وإظهارا لطاعتها وهو ما يدل على الحنكة السياسية وفن الحكم حيث يُقال أن الصالح نجم الدين أوصى بتسليم البلاد إلى الخليفة العباسي بعد وفاته لما كان يعرف عن ابنه توران شاه من الهوج والطيش.

وأمسكت شجرة الدر بزمام الأمور بجدارة وحُسْن تدبير حتى استنكر الخليفة العباسي تولى حكم مصر امرأة، وبعث يُعاتب أهل مصر في ذلك قائلا:

"إن لم يكن بقى عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلا".

لم تجد شجرة الدر من حيلة تتغلب بها على تأليب الخليفة العباسي أفضل من أن تتزوج مقدم العساكر الأمير عزّ الدين أيبك بعد أن أرغمته على أن يُطلق زوجته. ودفع هذا الزواج كبار المماليك إلى التنازع على السلطة، وضاقت نفس الزوج الضعيف في الشخصية وفي السلطة، وسئم حياته مع زوجته، فبعث يخطب بنت ملك الموصل بدر الدين لؤلؤ لعله يسترد بعض اعتباره ورجولته. واشتمت شجرة الدر رائحة الغدر من زوجها، كما أحسَّ هو أيضا بالريبة لوجودها معه في القلعة، فأسكنها في دار الوزارة.

وبكل لطف ومسكنة التمست شجرة الدر من زوجها عنها الصفح، فصفح عنها وانتقل إلى القصر فاستقبلته بكل بهجة وضمته إليها بحب واشتياق، واحتواها هو بين ذراعيه لائما ومعتذرا عمَّا بدر منه تجاهها، واستراح بجانبها ثم دخل للإستحمام فكان ينتظره خمسة من غلمانها الأشداء ما لبثوا أن انقضوا عليه وأجهزوا عليه.

وانتشر خبرُ موت السلطان أيبك فجأة ورجح المماليك خبر مقتله غدرا، فحاصروا شجرة الدر وحريمها وسجنوها، ونادوا بابن السلطان أيبك سلطانا عليهم فأمر بنقلها إلى أمه لتنتقم منها بنفسها. وكانت نهاية شجرة الدر بضربها بالقابقيب حتى الموت وإلقائها من فوق سور القلعة ولم تدفن إلا بعد عدة أيام.

قُبِلَ المهرُ.. وزُفَّتِ العرُوسَ

* رُوى أنه كان في البصرة نساءٌ عابدات، وكانت منهنَّ أم إبراهيم الهاشمية، فأغار العدوَّ على ثغر من ثغور المسلمين، فانتُدب الناس للجهاد، فقام عبد الواحد بن زيد البصري في الناس خطيباً، فحضّهم على الجهاد، وكانت أم إبراهيم هذه حاضرة في مجلسهِ، وتمادى عبد الواحد في كلامه، ثم وصف الحور العين، وذكره ما قيل فيَّهن، وأنشد في صفه حوراء:

غادةٌ ذاتُ دلالٍ ومرَحْ

يجد الناعت فيها ما اقترحْ

خُلِقَتْ من كلِّ شئ حَسَن

طيِّب، فياليت فيها مُطَّرَحْ[1]

زانها الله بوجهٍ جمعتْ

فيه أوصافَ غريباتِ المُلَحْ[2]

وبعينٍ كُحلُها مِنْ غَنْجِها

وَبخَدٍّ مسكُه فيه رَشَحْ

ناعمٍ تجرى على صفحته

نضرةٌ المُلْكِ ولآلاءُ الفرَحْ

فماجَ الناس بعضهم في بعض، واضطرب المجلس، فوثبت أم إبراهيم من وسط الناس، وقالت لعبد الواحد: يا أبا عبيد، ألست تعرفُ ولدي إبراهيم، ورؤساءُ أهل البصرة يخطبونه على بناتهم، وأنا أضنُّ به عليهم، فقد والله، أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها

[1]- يعنى أن كلمة "ليت" مطرح فيها، أي : مُبَعد، فلا يُقال: ليتها كانت كذا، لإستكمالها جميع الأوصاف الحسنة.

[2]- المُلَح: مفردها مليحة، وهي المرأة الجميلة.

عِرْساً[1] لولدي، فكرِّر ما ذكرت من حُسْنها وجمالها. فأخذ عبد الواحد في وصف الحوراء، ثم أنشد:

تولّدَ النور من نورِ وجْهِهَا
فمازجَ طيب الطيب من خالصِ العطرِ
فلو وطئتْ بالنعل منها على الحصى
لأعشبتِ الأقطارُ من غيرِ ما قَطْرِ
ولو شئت عقدَ الخصر منها عقدتَه
كغُصنٍ من الريحانِ ذي وَرَقٍ خُضْرِ
ولو تَفِلتْ في البحر شَهْدَ رُضابِها
لطابَ لأهل البَرَّ شربٌ من البحرِ

فاضطرب الناس أكثر، فوثبتْ أمٌّ إبراهيم، وقالتْ لعبد الواحد: يا أبا عُبيد، قد –والله– أعجبتني هذه الجارية وأنا أرضاها عِرْساً لولدي، فهل لك أن تزوجهُ منها، وتأخذَ مني مهرها عشرة آلاف دينار، ويخرجَ معك في هذه الغزوة، فلعلَّ الله يرزقه الشهادة، فيكونَ شفيعاً لـــي ولأبيه في القيامة؟

فقال لها عبد الواحد: لئن فعلتِ، لتفوزون أنتِ وولدُكِ، وأبو ولدك فوزا عظيما. فنادت ولدها، فوثبَ من وسَطِ الناس، وقال لها: لبيك يا أمَّاه، قالت: أي بُني، أرضيت بهذه الجاريـــة زوجةً لك، ببذلِ مهجتكَ في سبيل اللّه، وتركِ العودِ في الذنوب؟ فقال الفتى: إي والله يا أماه.. رضيتُ أيَّ رضىً، فقالت: اللهم إني أشهدك أنّي زوجتُ ولدي ورضىً، اللهمَّ إني أشهدك أنّي زوجتُ ولدي هذا من هذه الجارية، ببذلِ مهجتهِ في سبيلك، وتركِ العود في الـــذنوب، فتقبلـــهُ مني يا أرحمَ الراحمين.

ثم انصرفتْ، فجاءت بعشرة آلاف دينار، وقالت: يا أبا عبيد، هذا مهرُ الجارية، تجهّز به، وجَهِّز به، الغُزاةَ في سبيل الله، وانصرفتْ، فاشترت لولدها فَرَساً جيّداً، واســـتجادت لـــه سلاحاً، فلمَّا خرج عبد الواحد، خرج إبراهيمُ يعدو، والقرّاءُ حوله يقرؤون: (إنَّ اللّه اشْـــترى منَ المؤمنين أنفُسهُمْ وأَمْوالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ).

فلمَّا أرادتْ أم إبراهيم فراقَ ولدها، دفعت إليه كَفَناً وحَنُوطاً، وقالت له: أي بُنـــي، إذا أردتَ لقاء العدوَّ، فتكفَّن بهذا الكفن، وتحنّطْ، وإياك أن يراك الله مُقصِّراً في سبيله، ثم ضـــمّتْهُ

[1]– عرساً: زوجةً.

إلى صدرها.. وقبّلتْ بين عينيه، وقالت: يابُني، لا جمع الله بيني وبينك إلا بـين يديـه فـي عَرفَاتِ القيامة.

قال عبد الواحد: فلمّا بلغنا بلاد العدوَّ، وبرز الناسُ للقتال، برز إبراهيمُ في المقدمـة، فقتل من العدو خلقاً كثيراً، ثم اجتمعوا عليه، فقتلوه..

فلمَّا أردنا الرجوع إلى البصرة، قالت لأصحابي: لا تخبروا أمَّ إبراهيمَ بخبر ولـدها، حتى ألقاها بحُسنِ العزاء، لئلا تجزعَ فيذهبَ أجرها.. قال: فلمَّا وصلنا البصرة، خرج النـاس يتلقَّوننا، وخرجت أمُّ إبراهيم فيمن خرج، فلمَّا أبصرتني قالت: يا أبا عبيد، هل قبلـت منـي هديتي فأهنأ، أم رُدَّتْ عليَّ فأُعَزَّى؟ فقلت لها: قد قُبِلتْ -والله- هديتُكِ، إنَّ إبراهيم حـيٌّ مـع الشهداء -إن شاء الله- فخرَّت ساجدةً لله شكراً.. وقالتْ: الحمد لله الذي لم يخيَّب ظني، وتقبـل نُسكي منّي.. وانصرفت..

فلمّا كان من الغدَّ أتت إلى المسجد، فقالت: السلام عليك يـا أبـا عُبيـد، بُـشراكَ.. بُشراك؛.. فقال: لا زلتِ مبَشرةً بالخير، فقالت له: رأيتُ البارحة ولدي إبراهيم فـي روضـةٍ حسناء، وعليه قبةٌ خضراء، وهو على سرير من اللؤلؤ، وعلى رأسه تاجُ وإكليل، وهو يقول لي: يا أمّاه.. أبشري، فقد قُبِلَ المهرُ.. وَزُفَّتِ العروس[1].

---

[1]- مصارع الأشواق إلى مصارع العشاق ج١ ص ٢١٥ بتصرف.

البـــــاب الثانـي

بلاغة المرأة

البلاغة من حيث اللغة هي أن يُقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف[1]). وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: (أم لكم أيمان علينا بالغة[2])، أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية.

وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحُسْن الإشارة. وقال الهندي: البلاغةُ تصحيحُ الأقسام واختيار الكلام. وقال الكندي[3]: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني.

وقيل أن معاوية سأل عمرو بن العاص: من أبلغ الناس، فقال: أقلهم لفظا، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة، ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خصّ به سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم، وافتخر به حيث يقول: "نُصرت بالرُّعب وأُوتيت جوامع الكلم"[4]، وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة.

وقال أبو عبد الله وزير المهدى: البلاغةُ ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة. وقال البحتري[5]: خيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ ولم يُمِل. وقالوا البلاغة: ميدان لا يُقطع إلا بسوابق الأذهان ولا يُسلك إلا ببصائر البيان.

---

[1]- سورة الطلاق، الآية (٢).

[2]- سورة القلم، الآية (٣٩).

[3]- الكندي: هو يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك في كندة، اشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك، وألّف وترجم ما يزيد عن ثلاثمائة كتاب، وتوفي نحو (٢٦٠هـ-٨٧٣م). (انظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي).

[4]- نصرت بالرعب: نصرت بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الأعداء. أخرجه الترمذي في "السنن"، حديث رقم (١٥٥٣)، ج٤ص١٢٣.

[5]- البحتري: هو الوليد بن عبيد الله بن يحي الطائي، شاعر كبير، وُلد بمنبج سنة ٢٠٧هـ، ورحل إلى العراق ثم عاد إلى الشام، وتُوفي سنة ٢٨٤هـ-٨٩٨م.

*ورُوى أن ليلى الإخيلية مدحت الحجاج، فقال: يا غلام: اذهب إلى فلان فقل لــه يقطــع لسانها، قال: فطلب حجَّاما[1]، فقالت: ثكلتك أمك إنما أَمرك أن تقطع لساني بالصلة. فلولا تبــصرها بأنحاء الكلام وذاهب العرب والتوسعة في اللفظ ومعاني الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل.

*وقال الثعالبي[2]: البليغُ من يحول الكلام على حسب الأماني ويخيط الألفاظ علــى قــدر المعاني، والكلامُ البليغُ ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا. وقال الإمام فخر الدين الرازي[3] رحمــة الله تعالى عليه في حد البلاغة: أنها بلوغ الرجل بعبارته كُنة ما في قلبه مع الإحتراز عــن الإيجــاز المُخل والتطويل المُمل.

أما البيان فقد قال تعالى: "الرحمنُ علَّم القرآن* خلق الإنسان* علَّمه البيــان[4]). وقــال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرَ[5]).

قال ابن المعتز[6]: البيانُ الترجمان للقلوب وصقيل العقول. وقال الإمام فخر الدين الــرازي رحمة الله تعالى عليه: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وأصلها من قولهم أفصح اللــبن إذا أخذت عنه الرغوة، وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة كــل يــستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما، ويزعم بعضهم أن البلاغــة في المعاني والفصاحة في الألفاظ ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح. وقال يحيى بن خالد: مــا

---

[1]- الحجّام: محترف الحجامة، وهي امتصاص الدم بالمِحْجَم، وهي عبارة عن قارورة صغيرة.

[2]- الثعالبي: هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسابور، مــن تــصانيفه "فقــه اللغة" و "سحر البلاغة"، وتوفي سنة ٤٢٩هـــ-١٠٣٨م.

[3]- الإمام فخر الدين الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسين البكري، أوحد زمانه في المعقــول والمنقــول وعلــوم الأوائل، وهو قرشي النسب، ولد في الري سنة ٥٤٤هـــ، ومن تصانيفه "مفاتيح الغيب" و "تفسير القــرآن الكــريم" و "لوامع البينات"، وتوفي في هراة سنة ٦٠٦هـــ-١٢١٠م. أنظر سير أعلام النبلاء ج٢١ص٥٠٠ ترجمة٢٦١.

[4]- سورة الرحمن، الآيات (١-٤).

[5]- أخرجه أحمد في "المسند" ج١ص٣٠٩.

[6]- ابن المعتز: هو عبد الله بن محمد بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي، شــاعر مبــدع، كــان مولعا بالأدب وكان يقصد فصحاء العرب ويأخذ منهم، وصنّف كتبا كثيرة منها "الزهــر والريــاض" و "البــديع" و "طبقات الشعراء"، توفي سنة ٢٩٦هـــ-٩٠٩م. أنظر "سير أعلام النبلاء" ج٤ص١١٨.

رأيت رجلا قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحا عَظُم في صدري، وإن قَصر سقط من عيني[1].

قد أصبت البغية

*عن ابن الكلبي[2]، قال: كان قيلٌ[3] من أقيال حِمْيَر، مُنع الولد دهرا، ثمَّ ولدت له بنت فبنى لها قصرا منيفا بعيدا من الناس، ووكَّل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء، فنشأت أحسن منشأ وأتمَّه في عقلها وكمالها، فلمَّا مات أبوها ملَّكها أهل مخلافها[4]، فاصطنعت النسوة اللواتي ربينها، وأحسنت إليهن، وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرا دونهن. فقلن لها يوما: يا بنت الكرام لو تزوجت لتم لك المُلْك، فقالت: وما الزوج؟

فقالت إحداهن: الزوجُ عزّ في الشدائد، وفي الخطوب مساعد، إن غضبت عطف، وإن مرضت لطف.

قالت: نِعم الشيء هذا.

فقالت الثانية: الزوجُ شعاري حين أصرد[5] ومتكئي حين أرقد، وأُنسى حين أُفْرُد.

فقالت: إن هذا لمن كمال طِيبُ العيش.

فقالت الثالثة: الزوجُ لما عناني كاف، ولما شفاني شاف، يكفيني فقد الآلاف، ريقُه كالشهد، وعناقه كالخلد، لا يملُّ قرانه، ولا يخاف حِرانُه[6].

فقالت: أمهلنني أنظر فيما قلتن.

واحتجبت عنهن سبعا ثم دعتهن، فقالت: قد نظرتُ فيما قلتن، فوجدتني أملِّكه رقِّي، وأبثُّه باطلي وحقي، فإن كان محمود الخلائق، مأمون البوائق[7]، فقد أدركت بغيتي، وإن كان غير

---

[1]- المستطرف ج١ ص٧٥-٧٦.

[2]- ابن الكلبي: هو هشام بن محمد بن أبي النضر بن السائب بن بشر الكلبي، أبو المنذر، مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامهم، كثير التصانيف له نيف ومئة وخمسون كتابا منها "جمهرة الأنساب" و "نسب الخيل" و "أسواق العرب"، توفي سنة ٢٠٤هـ ٨١٩م. أنظر "سير أعلام النبلاء" ج١٠ص١٠١ ترجمة ٣.

[3]- القيل: الملك، لقب لملوك اليمن.

[4]- مخلافها: المخلاف: المصر والبلد.

[5]- الشعار: الغطاء، وأصرد: أبرد.

[6]- حرانه: غضبه.

[7]- البوائق: الدواهي والأحزان.

ذلك فقد طالت شقوتي، على أنه لا ينبغي إلاّ أن يكون كُفؤا كريما يسود عشيرته، ويربُّ[1] فصيلته، لا أتقنَّع به عاراً في حياتي، ولا أرفع به شناراً[2] لقومي بعد وفاتي، فعليكن فابغينـه وتفـرقن فـي الأحياء، فأيتكن أتتني بما أحبّ فلها أجزل الحباء[3] وعليَّ لها الوفاء.

فخرجن فيما وجهتهن له، وكنَّ بنات مقاول، ذوات عقل ورأى، فجاءتها إحـداهن وهـي عمرّطة بنت زرعة بن ذى خنفر، فقالت: قد أصبت البغية.

فقالت: صفيه ولا تسميه.

فقالت: غيثٌ في المحل، ثمالٌ[4] في الأذل، مفيد مبيد، يصلح الناثر[5]، وينعش العاثر، ويغمر النَّدى، ويقتاد الأبي[6]، عرضه وافر، وحسبه باهر، غضّ الشباب، طاهر الأثواب.

قالت: ومَنْ هو؟

قالت: سبرة بن عوّال بن شداد بن الهمّال.

ثم خلت بالثانية، فقالت: أصبت من بغيتك شيئا.

قالت: نعم.

قالت: صفيه ولا تسميه.

قالت: مصامص[7] النسب، كريم الحسب، كامل الأدب غزير العطايا، مـألوف الـسجايا، مقتبل الشباب، خصيب الجناب، أمره ماض وعشيره راض.

قالت: ومَنْ هو؟

قالت: يعلَى بن هزال بن ذي جدن.

ثم خلت بالثالثة، فقالت: ما عندك؟

قالت: وجدته كثير الفوائد، عظيم المراقد، يعطى قبل السؤال، ويُنيل قبل أن يُـستنال، فـي العشيرة معظَّم في الندى مكرَّم، جمّ الفواضل، كثير النوافل[1] بذَّال أموال، محقق آمال، كريم أعمـام وأخوال.

---

[1] – يرب: يصلح.

[2]– شنارا: عارا وعيبا.

[3]– الحباء: العطاء.

[4]– الثمال: الذي يقوم بأمر قومه، والأزل: الشدة.

[5]– الناثر: الذي يلقى الشر والفساد بين الناس.

[6]– يقتاد الأبي: يقتاد الممنع.

[7]– المصامص: كريم الحسب والنسب.

قالت: ومَنْ هو؟

قالت: رواحة بن ضُمير بن مضحى بن ذى هلاهلة.

فاختارت يَعلى بن هزال فتزوجته، فاحتجبت عن نسائها شهرا ثم خرجت وأجزلت لهن الحباء وأعظمت لهن العطاء[٢].

وصية أم عاقلة لابنتها

*أوصت أم عاقلة ابنتها عند زواجها، فقالت:

"أي بنية لا تغفلي عن نظافة بدنك، فإن نظافته تضيء وجهك، وتحبب فيك زوجك، وتبعد عنك الأمراض والعلل، وتقوى جسمك على العمل، فالمرأة التفلة أي النتنة تمجها الطباع، وتنبو عنها العيون والأسماع، وإذا قابلت زوجك فقابليه فرحة مستبشرة، فإن المودة جسم روحه بشاشة الوجه".

وقيل: لما خطب عمرو بن حجر الكندي إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك، أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت:

"أي بنية إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت، وعشّك الذي منه درجت إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمةً ليكون لك عبدا، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذخرا، فأما الأولى والثانية: فالرضا بالقناعة وحُسْن السمع والطاعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهية وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالإحراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصى له أمرا، ولا تُفشى له سرا فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما، والكآبة لديه إذا كان فرحا".

فقبلت وصية أمها فأنجبت له الحرث بن عمرو جد امرىء القيس الملك الشاعر[٣].

[١]- النوافل: العطايا، مفردها نافلة.

[٢]- الأمالي ص٨٠-٨١.

[٣]- المستطرف ج٢ص٣٤٤، ومجمع الأمثال للميداني ج٢ص٢٦٣.

ما تقولين أنت؟

*قال ابن عائشة[1]: كان أبو الإصبع العدواني[2] غيورا، وكان له أربــع بنــات، فــأبى أن يزوجهن. فقالت: واحدة منهن: لتقل كل واحدة منا نفسها.

فقالت كبراهن:

ألا ليت زوجي من أُناس ذوى غنى   حديث الشباب طيب النشر والذكر[3]

لصوق بأكباد النساء كأنه   خليفةُ جارٍ لا يقيم على الهجر

قلن لها أنت تريدين شابا غنيا.

وقالت الثانية:

عظيمُ رمادِ القدر رحبٌ فناؤُه   له جفنةٌ يشقى بها النيبُ والجزرُ[4]

له خلقان: الشيب من غير كبرةٍ   تشين، ولا وان ولا صرع غمرُ[5]

وقالت الثالثة:

ألا هل تراها مرةً وخليلها   يضم كبعلٍ المشرفيّ المهندِ[6]

عليه رواءٌ لليسار ورهطه   إذا ما انتمى من أهل بيتي ومحتدي[7]

فقلن لها: أنت تريدين ابن عم لك قد عرفته.

وقلن للصغرى: ما تقولين أنت؟

فقالت: لا أقول شيئا.

---

[1]- لعلّه عبد الرحمن بن عبيد الله بن محمد ابن حفص التيمي، المعروف بابن عائشة شــاعر متــأدب، مــن أهــل البصرة، قصد بغداد واتصل بالقاضي أحمد بن أبي داود، فمدحه، توفي حوالي سنة ٢٢٧هـــ.

[2]- أبو الإصبع العدواني: هو حرثان بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، ويسمى ذو الإصــبع، شــاعر جــاهلي، سُمي ذا الإصبع لأن حية نهشته في إصبعه فقطعها. أنظر "الشعر والشعراء".

[3]- طيب النشر: طيب الرائحة.

[4]- عظيم رماد القدر: كناية عن كرمه، والجفنة: القدر الكبير يُطبخ فيه اللحم وغيــره، والنيــب: الإبــل الهرمــة، والجزر: ما يُعد للذبح من جزور كالشاة وغيرها.

[5]- كبرة: أي تقدم في السن، وتشين: تعيب، والواني: الضعيف، والغمر: الجاهل، والمعنى أنها تريده رجلا مكــتملا ناضجا غير مسن.

[6]- المشرفي المهند: السيف المنسوب إلى الهند.

[7]- الرواء: المظهر، والمحتد: الأصل.

فقلن لها: لن ندعك لأنك اطلعت على أسرارنا وكتمت سرك.

فقالت: لا أدرى ما أقول إلا أنه زوجٌ من عود، خيرٌ من قعود، قال: فخُطِبن، فزوجهن جميعا[1].

أنا أكفيكموه اليوم

*ذكر أبو علي القالي في كتابه "الآمالي"، قال: كان لهمام بن مُرَّة بنات فعنّسهنَّ، فقالت الكبرى: أنا أكفيكموه اليوم. فقالت:

أهمّام بن مُرَّة إنَّ همي إلي قنفاء مُشرفة القدال

فقال همّام: قنفاء مشرفة القدال تصف فرسا.

فقالت الوسطى: ما صنعت شيئا، فقالت:

أهمّام بن مُرَّة إنَّ همي إلى الآتي يكن مع الرجال

فقال همّام: يكون مع الرجال الذهب والفضة!

فقالت الصغرى: ما صنعتما شيئا، وقالت:

أهمّام بن مُرَّة إنَّ همي إلى عَرْد أَسُد به مَبَالي

فقال همّام: قاتلكن الله والله لا أمسيت أو أزوجكن، فزوجهن.

وما نحن والفتيان إلا شقائق

*وذكر أبو علي القالي في كتابه "الأمالي" أيضا، أنه كان رجل من العرب له ثلاث بنات قد عَضَلّهنّ ومنعهنّ الأكفاء، فقالت إحداهن: إن أقام أبونا على هذا الرأي فارقنا وقد ذهب حظ الرجال منا فينبغي لنا نعرض له ما في نفوسنا – وكان يدخل على كل واحدة منهن يوما – فلمَّا دخل على الكبرى تحادثا ساعة، فحين أراد الانصراف أنشدت:

أَيَزْجَرُ لاهينا ونُلحي على الصبا وما نحن والفتيان إلا شقائق

يَؤُبْنَ حبيباتٍ مراراً كثيرة وتنباك أحياناً بهن البوائق[2]

فلمَّا سمع الشعر ساء،ه ثم دخل على الوسطى فتحادثا، فلمَّا أراد الانصراف أنشدت:

ألاّ أيها الفتيانُ إنَّ فتاتكم دهاها سماعُ العاشقين فحنَّتِ

---

[1]- أخبار النساء لابن الجوزي ص٩١-٩٢.

[2]- البوائق: الدواهي والمصائب.

فدونكم أبْغوها فتىّ غير زُمَّلٍ   وإلا صبت تلك الفتاة وجُنّتِ

فلمَّا سمع شعرها ساءه، ثم دخل على الصغرى في يومها فتحادثا، فلمَّا أراد الإنصراف أنشدت:

أما كان في ثِنْتَيْن ما يَزَعُ الفتى   ويعقِل هذا الشيخ إن كان يعقل

فما هو إلاّ الحِلُّ أو طلبُ الصَّبا   ولا بدَّ منه فأتمرْ كيف تفعل

فلمَّا رأى تواطؤهن على ذلك زوجهنَّ.

ألا أيها البنتان إن أباكما

*حُكى أن شاعراً كان له عدوا، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له: يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتني امض إلى داري وقف بالباب وقل:

ألا أيها البنتان إن أباكما   ....

فقال له: سمعا وطاعة. ثم إنه قتله، فلمَّا فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال:

ألا أيها البنتان إن أباكما   ....

وكان للشاعر ابنتان فلمَّا سمعتا قول الرجل:

ألا أيها البنتان إن أباكما   ....

أجابتا بفم واحد:

قتيل خذا بالثأر مما آتاكما

ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فأقرره، فأقرّ بقتله والله أعلم[1].

بلاغة عجوز

*وقيل: بينما كُثَيِّر عزة مار بالطريق يوما إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق يتمشى، فقال لها: تنحى عن الطريق. فقالت له: ويحك ومن تكون؟ قال: أنا كُثَيِّر عزة. قالت: قبَّحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق. قال: ولِمَ؟ قالت: ألست القائل:

وما روضة بالحُسْن طيبة الثرى   يسج الندى جنباتها وعرواها

[1]- المستطرف ج١ ص٩٨-٩٩.

يا طيب من أراد أن عزة موهنا   إذا أوقدت بالمجمر اللدان نارها

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحها، لِمَــا لا قلــت: مثــل سيدك امرىء القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارق   وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جواباً.

لله درك يا أبى

*وحُكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكُتَّاب، فعبر يوما تحت جوسق ببــستان، فــرأى جارية ذات وجه زاهر وكمال باهر لا يستطيع أحد وصفها، فلمَّا نظر إليها ذهل عقله وطار لُبَّــه. فعاد إلى منزله، وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه. وكانت الجارية عزباء، وكتــب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة في جوسقها. فلمَّا قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليــه مــع العجوز عنبرا، وجعلت فيه زر ذهب وربطت ذلك على منديل، وقالت للعجوز: هذا جواب رقعته.

فلمَّا رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحيَّر في أمره. وكانت له ابنة صــغيرة الــسن، فلمَّا رأت أباها متحيرا في ذلك، قالت له: يا أبت أنا علمت معناه، قال: وما هو لله درك؟ قالت:

أهدت لك العنبر في جوفه   زِر من التبر خفي اللحام

فالزر والعنبر معناهما   زُر هكذا مختفيا في الظلام

قال: فتعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها[1].

وصفٌ بليغٌ

*قيل: مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وبعض من أصحابه ليلة هاجر من مكــة إلــى المدينة على خيمتي أمِّ معبد الخزاعية، وكانت أمُّ معبد امرأة برزة جلدة .. تجلــس بفنــاء الخيمــة

[1]- المرجع السابق.

فتطعم وتسقى، فسألوها: هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شـيئا مـن ذلـك، وقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوذكم القِرى[١]، وإذا القوم مرملون[٢] مسنتون[٣].

فنظر رسول الله فإذا شاة في كسر خيمتها، فقال: ما هذه الشاة يا أمّ معبد؟

فقالت: شاةٌ خلَّفها الجهد عن الغنم.

قال: فهل بها من لبن؟

قالت: هي أجهد من ذلك.

قال: تأذنين لي أن أحلبها؟

قالت: إن كان بها حلبٌ فاحلبها.

فدعا رسول الله بالشاة، فمسحها وذكر اسم الله، ومسح ضرعها، وذكر اسم الله، ودعا بإناء لها يربض الرهط[٤] فتفاجت[٥] واجترّت، فحلب فيه ثُجّاً[٦] حتى ملأه، فسقاها وسقى أصحابه، فـشربوا عللا بعد نهل[٧] حتى إذا رووا، شرب آخرهم، وقال: ساقي القوم آخرهم، ثم حلب فيه ثانيـا عـودا على بدء، فغادره عندهم، ثمّ ارتحلوا.

قال: فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق عنزا عِجافا يتساوكن[٨] هزلى لا نقيّ بهـن[٩]، فلمَّا رأى اللبن عجب، وقال: من أين هذا اللبن يا أمّ معبد ولا حلوبة في البيت والـشاة عـازب[١٠]؟ فقالت: لا والله إنه مرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت.

فقال: صفيه لي، فو الله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب.

---

[١]- القِرى: الضيافة.

[٢]- مرملون: فقراء.

[٣]- مسنتون: مجدبون.

[٤]- يربض الرهط: يسقى الجماعة ويشبعهم.

[٥]- تفاجت: أفرجت ساقيها.

[٦]- ثُجا: الماء، أي سال وانصب.

[٧]- العلل: الشربة فينة فينة، والنهل: أول الشرب حيث يشرب الماء حتى يشبع.

[٨]- يتساوكن: يسرن سيرا خفيفا.

[٩]- النقي: مخ العظم.

[١٠]- عازب: غائب.

فقالت: رأيتُ رجلا ظاهر الوضاءة، حسن الخُلق، مليح الوجه، لم تعبه ثجلة[1]، ولم تزر به صعلة[2]، قسيمٌ وسيمُ في عينيه دعجٌ، وفي أشفاره وطفٌ[3]، وفي صوته صحلٌ[4]، أحول أكحل أزجَّ أقرن[5]، في عنقه سطع[6]، وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلّم سما وعليه البهاء، حلو المنطق، فصلٌ لا نزرلٌ ولا هذر[7]، كأنّ منطقه خرزات نظم ينحدرن، أبهى الناس وأجمله من بعيد وأحسنه من قريب، ربعة[8]، لا تنساه عينٌ من طول ولا تقتحمه عين من قصر، غصنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدّا، له رفقاء يحفّون به إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره محفود[9] محشود، لا عابسٌ ولا معتدّ[10].

فقال – يعنى زوجها– هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمست أن أصحبه، ولأجهدن إن وجدت إلى ذلك سبلا. وأخذ يقول: سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا تشهد[11].

أصاب الله ببرك مواقعه

* بعث النبي عليًا إلى طي، فهرب عُدّي[12] بأهله وولده ولحق بالشام وخلَّف أخته "سفانة"، فأسرتها خيل رسول الله، فلمَّا أُتى بها إلى النبي، قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلِّي عنى، ولا تُشمت بي أحياء العرب، فإن أبى كان سيّد قومه، يفكّ العاني[13]، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمى الديار، ويفرّج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشى السلام،

---

[1]- الثجلة: الضخامة.

[2] الصلعة: الدقة.

[3]الوطف: شعر الحاجبين.

[4] الصحل: البحة والخشونة في الصوت.

[5]- الأزج: الحاجب الرقيق في الطول، والأقرن: المتصل الحاجبين.

[6]- السطع: الطول والارتفاع.

[7]- فصل: أي كلامه يفصل بين الحق والباطل، والنزر: القليل، والهذر: الكثير.

[8]- ربعة: وسيط القامة بين الطول والقصر.

[9]- محفود: منصور.

[10]- معتد: مزهو.

[11]- البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص١٠-١٩١ مع بعض التصرف.

[12]- عدي: هو عدي بن حاتم الطائي.

[13]- العاني: الأسير.

ويحمل الكلّ[1]، ويعين على نوائب الدهر[2]، وما أتاه أحد في حاجة فردّه خائبـا، أنـا بنـت حـاتم الطائي[3].

فقال لها النبي: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقا، لو كان أبوك مسلما لترحمنـا عليـه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق[4]، وقال فيها: "ارحموا عزيزا ذلّ، وغنيـا افتقـر، وعالما ضاع بين جهال". فأطلقها ومن عليها، فاستأذنته في الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصـحابه: اسمعوا وعوا.

فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كـريم قوم إلا وجعلك سببا في ردها عليه.

فلمَّا أطلقها صلي الله عليه وسلم، رجعت إلى قومها، فأتت أخاهـا عـديا وهـو بدومـة الجندل، فقالت له: يا أخي، ائتِ هذا الرجل قبل أن تعلّقك حبائله، فإني قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة، رأيت خصالا تعجبني، رأيته يحب الفقير، ويفكّ الأسير ويرحم الصغير، ويعرف قـدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه صلي الله عليه وسلم، وإني أرى أن تلحق به، فإن يـك نبيّـا فللسّابق فضله، وإن يك ملكاً فلن يذلّ في عزِّ اليمن.

فقدم عُدّي إلى النبي صلي الله عليه وسلم، فألقى له وسادة محشوة ليفا، وجلس النبي صلي الله عليه وسلم على الأرض، فأسلم عُدّى بن حاتم وأسلمت أخته "سفانة"[5].

أشعرُ الناس

*لمَّا قدم عُدَّي بن حاتم على رسول الله صلي الله عليه وسلم وحادثه وقال: يا رسـول الله، إن فينا أشعر الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس. قال صلي الله عليه وسلم: سمهم[6].

---

[1]- الكلّ: الضعيف الفقير.

[2]- نوائب الدهر: مصائبه.

[3]- حاتم الطائي: هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القمطاني، أبو عـدي، فـارس شـاعر، جـواد جاهلي، يُضرب به المثل بجوده، كان من أهل نجد، وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجـر الغـسانية، ومـات فـي عوارض (جبل في بلاد طيء) سنة ٤٦ ق هـ-٥٧٨م، شعره كثير ضاع معظمه وبقي ديوان صغير فقـط. أنظـر "الشعر والشعراء لابن قتيبة ص١٤٣-١٤٨.

[4]- أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" ج٥ ص٣٤١.

[5]- المستطرف ج١ ص٢٧٣-٢٧٤.

[6]- سمهم: أي اذكر أسماؤهم.

قال عُدَّي: أمَّا أشعر الناس فامرؤ القيس ابن حجر، وأمَّا أسخى الناس فحـاتم بـن سـعد (يعنى أباه)، وأمَّا أفرس الناس فعمر بن معدي كرب.

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: ليس كما قلت يا عُدَّي، أمَّا أشعر النـاس فالخنـساء بنت عمرو[1]، وأما أسخى الناس فمحمد –يعنى نفسه– وأما أفرس الناس فعلي بـن أبـى طالـب رضى الله عنه.

*وقيل لجرير الشاعر: من أشعر الناس؟

قال: أنا، لولا الخنساء.

قيل له: لِمَ فضلتها؟

قال لقولها:

إن الزمان وما يغنى له عجب	أبى لنا ذنبا واستأصل الرأس
إن الجديدين في طول اختلافهما	لا يفسدان ولكن يفسد الناس[2]

*قال الأصمعي: نظر عمر بن الخطاب إلى خنساء وبها ندوب في وجهها، فقال: ما هـذه الندوب[3] يا خنساء؟

قالت: من طول البكاء على أخوى.

قال لها: أخواك في النار.

قالت: ذلك أطول لحزني عليهما، إني كنت أشفق عليهما من القتل، وأنا اليوم أبكي لهمـا من النار، وأنشدت:

وقائلةٍ والنعشُ قد فات خطْوَها	لتدركه يا لهفَ نفسي على صخر
ألا ثَكِلتْ أمُّ الذين غدوا به	إلى القبر ماذا يحملون إلى القبرِ

---

[1]– الخنساء بنت عمرو. هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت. ووفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها بني سلم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنشدها ويعجبه شعرها فيطرب فيقول: هيه يا خناس، ويومىء بيده. وأكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية وكانا قد قُتلا في الجاهلية. وماتت في البادية في أول خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٤هـ.

[2]– الجديدان: الليل والنهار.

[3]– الندوب: الآثار التي تتركها الجروح على الجلد.

*قيل: دخلت الخنساء على عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها وعليها صدار[١] من شعر قد استشعرته على جلدها، فقالت لها: ما هذا يا خنساء؟ فوالله لقد توفي رسول الله فما لبسته.

قالت: إن له معنى دعاني إلى لباسه وذلك أن أبى زوجني سيّد قومه، وكان رجلا متلافا فأسرف في ماله فأنفذه أيضا ثم التفت إليَّ فقال: إلى أين يا خنساء؟ قالت: إلى أخي صخر. قالت: فأتيناه فقسَّم ماله شطرين، ثم خيَّرنا في أحسن الشطرين، فرجعنا من عنده، فلم يزل زوجي حتى أذهب جميعه ثم التفت إليَّ. فقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر. قالت: فرحلنا إليه ثم قسَّم ماله شطرين وخيَّرنا في أفضل الشطرين. فقالت له زوجته: أما ترضى أن تشاطرهم مالك حتى تخيرهم بين الشطرين؟ فقال:

والله لا أمنحها شرارها فلو أهلكت قدَّدت خمارها[٢]

واتَّخذت من شعرٍ صدارها وهي حَصانٌ قد كفتني عارها[٣]

فآليت ألا يفارق الصدار جسدي ما بقيت[٤].

*وقيل للخنساء: صفي لنا أخويك صخرا ومعاوية.

فقالت: كان صخر والله جنة الزمان الأغبر[٥]، وذعاف[٦] الخميس الأحمر[٧]، وكان والله معاوية القائل والفاعل.

قيل لها: فأيهما كان أنسى وأفخر.

قالت: أما صخر فحرُّ الشتاء، وأما معاوية فبرد الهواء.

قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع.

قالت: أما صخر فجمرُ الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد! وأنشدت تقول:

أسدان مُحْمَرّا المخالب نجدةً بحران في الزمن الغضوبِ الأنمر[٨]

---

[١]- الصدار: ثوب بلا كمين يغطي الصدر فوق القميص الخارجي.

[٢]- قددت: قطعت.

[٣]- حَصان: عفيفة.

[٤]- العقد الفريد لابن عبد ربه ج٣ ص٢٢٢.

[٥]- الجنّة: الستر والدرع، والزمان الأغبر: ذو الدواهي والمصائب.

[٦]- الذعاف: الموت، أو السم الذي يقتل من ساعته.

[٧]- الخميس الأحمر: الجيش.

[٨]- الأنمر: من النمر، كناية عن الزمن الذي فيه شدة.

قمران في النادي رفيعا مَحْتِدٍ   في المجد فرعا سوددٍ مُتَخَيَّر [1]

زوجي

*جاء في كتاب "النسوة" عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: اجتمع إحدى عشرة من النساء في مجلس واحد وتعاقدن وتعاهدن على أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا إلا ويذكرنه بعبارة وجيزة.

فقالت الأولى: زوجي لحم جمل، غث على جبل (تريد بذلك أنه خفيف اللحم كالجمل الهزيل يصعب الانسجام معه والتحدث إليه والأنس معه).

وقالت الثانية: زوجي لا أبث خبره، ولا أذكر أثره (تريد بذلك أن تفصيل حالة زوجها – لكثرة ما فيه من طباع مختلفة وصفات متناقضة– غير مستطاع).

وقالت الثالثة: زوجي إذا نطقت طلقني، وإذا سكت علقني (قصدت بذلك إنها إذا طلبت منه شيئا يهددها بالطلاق، وإذا سكتت عن الطلب أهملها وتركها).

وقالت الرابعة: زوجي مثل ليل تهامة [2] لا حرٌّ فيه ولا قرّ ولا سامة (تريد بذلك أن زوجها هو المثل الكامل في الإعتدال في أعماله وأفعاله وإذ يشبه ليالي تهامة التي لا يشعر فيها النائم فيها بالملل والحرّ والبرد).

وقالت الخامسة: زوجي إذا دخل فهد، وإذا خرج أسد، لا يسأل عمَّا عهد (تقصد أنه إذا كان داخل البيت يميل إلى الدعة والراحة والنوم كالفهد، وإذا خرج هابه الناس مهابتهم للأسد وإنه كريم سموح بحيث أنه لا يسأل عن شيء عهده في البيت ولم يجده).

وقالت السادسة: إن زوجي إذا أكل لفَّ، وإذا شرب شف، وإن اضطجع كفَّ (تريد أن زوجها يأكل ما في البيت من طعام ولا يبقى فيه من شراب، ويكف نفسه عن ملامستها).

وقالت السابعة: إن زوجي إياب غيَّاب (تعنى أنه كثير البحث عن العيوب، يذم الناس في الغيبة والشهود).

وقالت الثامنة: إن زوجي ألمس أريح أرنب (تقصد إنه لطيف الروح كريم الخلق حسن العشرة بعيد عن الشهوات).

---

[1]– المحتد: الأصل.

[2]– تهامة: منطقة في جنوب المملكة العربية السعودية، مناخها حار.

وقالت التاسعة: إن زوجي لرفيع العماد، طويل النجاد، كثير الرَّماد، قريب النــاد (تقــصد أنه ذو نسب رفيع ويتقلّد سيفا ذا حمائل طويلة – لطول قامته وعظيم شــجاعته – كثيــر الرمــاد لكثرة ضيوفه والواردين عليه، قريب الناد لقرب مجلسه من مسكنه ليكون ما فــي البيتــين ســهل إحضاره على خدامه).

وقالت العاشرة: إن زوجي مالك، وما ملك (تعنى أنه رغم ملكه لكل شيء فإنــه يعــيش كالفقراء الذين لا يملكون شيء).

وقالت الحادية عشرة: إن زوجي يزرع ولا يحصد (تعنى أنه يعمل المعروف فــي غيــر أهله، ولا ينال على معروفه نصيبا).

ألهى خليلي عن فراشه مسجده

*وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، فقالت: يا أميــر المــؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل. فقال لها: نِعْمَ الرجل زوجك.

وكان في مجلسه رجل يُسمى كعبا، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذه المرأة تشكو زوجهــا في أمر مباعدته إياها عن فراشه.

فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما.

فقال كعب: عليَّ بزوجها. فأُحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك.

قال: أفي أمر طعام أم شراب؟

قال: بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك.

فأنشأت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيم أنشده ألهى خليلي عن فراشي مسجده

نهاره وليله لا يرقده فلست في أمر النساء أحمده

فأنشأ الزوج يقول:

زهدني في فراشها وفي الحلل أنى امرؤ أذهلني ما قد نزل

في سورة النمل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف بجل

فقال القاضي:

إنَّ لها عليك حقاً لم يزل في أربع نصيبها لمن عقل

فعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحلَّ لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، أفلك ثلاثة أيام بليلهن ولها يوم وليلة.

فقال عمر رضي الله عنه: لا أدرى مِن أيكم أعجب من كلامهما أم من حكمك بينهما؟ اذهب فقد وليتك البصرة[1].

إن للدهر لسطوات وعبرات

*كانت حرقة بنت النعمان بن المنذر ملك الحيرة إذا خرجت إلى بيعتها يفرش لها طريقها بالحرير والدِّيباج مغشى بالخزّ والوشي، ثم تقبل في حواريها حتى تصل إلى بيعتها وترجع إلى منزلها. فلمَّا هلك النعمان نكبها الزمان، فأنزلها من الرفعة إلى الذِّلة.

ولمَّا وفد سعد بن أبي وقاص القادسية أميرا عليها، لمَّا هزم الله الفرس، وقتل رستم، فأتت "حرقة بنت النعمان" في حفدةٍ من قومها وجواريها وهنَّ في زيّها عليهم المسوح[2] والمقطعات السّود مترهبات تطلب صلتُه.

فلمَّا وقفن بين يديه أنكرهن سعد، فقال: أفيكن حرقة؟ قالت: ها أنذه. قال: أنت "حرقة"؟ قالت: نعم، فما تكرارك في استفهامي؟ ثم قالت: إنَّ الدنيا دار زوال، ولا تدوم على حال تنتقل بأهلها انتقالا وتعقبهم بعد حال حال، كنا ملوك هذا المِصر يُجبى لنا خراجه، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة، فلمَّا أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر، فصدع عصانا وشتّت شملنا، وكذلك الدهر يا سعد، إنّه ليس يأتي قوما بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة، ثم أنشأت تقول:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيم سوقةٌ ليس نعرفُ

فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرّفُ

فقال سعد: قاتل الله عُدّي بن زيد، كأنه ينظر إليها حيث يقول::

إنَّ للدهر صولةً فاحذرنْها ... لا تبيتنَّ قد آمنت الدّهورا

قد يبيت الفتى معافى فيُردى ... ولقد كان آمناً مسرورا

---

[1]- المرجع السابق ج١ ص١٠٠.

[2]- المسوح: ثوب الراهب، والمفرد المسح.

فبينا هي واقفة بين يدي سعد إذ دخل عمرو بن معد يكرب، وكان زوار لأبيها في الجاهلية. فلمَّا نظر إليها، قال: أنتِ "حرقة"؟. قالت: نعم. قال: فما دهمك فأذهب محمودات شيمك، وأين تتابع نعمتك وسطوات نقمتك؟

فقالت: يا عمرو، إنَّ للدهر لسطوات وعثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم فتحطهم بعد رفعة وتفردهم بعد منعة وتذلهم بعد عِزة، إن هذا الأمر كنا ننتظره. فلمَّا أرادت فراقه، قالت: حتى أحييك بتحية ملوكنا بعضهم لبعض، لا نزع الله من عبدٍ صالحٍ نعمة إلا جعلك سببا لردِّها عليه. ثم خرجت من عنده، فلقيها نساء المدينة، فقلن لها: ما فعل بك الأمير؟ قالت: حاط لي ذمتي وأكرم وجهي، إنما يُكرم الكريمُ الكريمَ[1].

لله درك من مجنّ في جنن

*قيل: لمَّا دُفن الأحنف[2]، أقبلت صفية بنت هشام المنقرية على نجيب[3] لها متخصّرة[4]، وكانت بنت عمّ الأحنف، حتى وقفت على قبره، فقالت: لله درُّك من مجنّ[5] في جنن، ومدرج في كفن، إنا لله وإنا إليه راجعون، جعل الله سبيل الخير سبيلك، ودليل الرشد دليلك، أمَّا والذي أسأله أن يفسح لك في مدخلك، وأن يبارك لك في محشرك، والذي كنت من أجله في عدّة، ومن الكآبة في مدة، ومن الأثرة إلى نهاية، ومن الضمار[6] إلى غاية، لقد كنت صحيح الأديم[7]، منيع الحُرم، عظيم السّلم، فاضل الحلُم، واري الزّناد[8]، رفيع العماد[9]، وإن كنت لمسوّداً، وإلى الملوك لموفدا، وفي المحافل شريفا، وعلى الأرامل عطوفا، وكانت الملوك لقولك مستمعين، ولرأيك متبعين، ولقد عشت حميدا ودودا، ومتّ شهيدا فقيدا. ثم أقبلت على الناس بوجهها، فقالت: عباد الله، إنَّ أولياء

---

[1]- مروج الذهب ج٢ ص١١١-١١٢.

[2]- الأحنف: هو الأحنف بن قيس سيّد تميم، أحد القادة الفصحاء الشجعان الفاتحين، تُوفي بالكوفة سنة ٧٢هـ.

[3]- النجيب: الكريم من الإبل.

[4]- المتخصرة: التي تحمل مخصرة، وهي العصا، وكان العرب يحملونها حين يخطبون.

[5]- المجنّ: المستور، وهنا المدفون.

[6]- الضمار: الأجل الذي لا يُعلم.

[7]- الأديم: المخبر، والأديم: ما ظهر من الشيء.

[8]- واري الزناد: كناية عن الشجاعة.

[9]- رفيع العماد: كناية عن السيادة.

الله في بلاده شهود على عباده، وإنّا لقائلون حقا، ومثنون صدقا، وهو أهل لطيِّب الثناء، فعليه رحمة الله وبركاته، وما مثله في الناس إلا كما قال الشاعر في قيس بن عاصم[1]:

عليك سلام الله يا قيس بن عاصم	ورحمته ما شاء أن يترحما
فما كان قيس هلكُه هلكُ واحد	ولكنه بنيان قوم تهدما
سلام امريء أودعته منك نعمة	إذا زار عن شحطٍ بلادك سالما[2]

قال: فتعجَّب الناس من كلامها. وقال فصحاؤهم: تالله ما رأينا كاليوم قط، ولا سمعنا أفصح ولا أبلغ من هذه. قال: فبعث إليها مصعب بن الزبير، فخطبها إلى نفسه فأبت عليه، فمازال يتعاهدها ببرِّه حتى قُتل[3].

المتكلمة بالقرآن الكريم

*حكى عبد الله بن المبارك[4]، فقال: خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في الطريق إذا أنا بسوادٍ على الطريق، فتميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف، فقلت: السلام عليكِ ورحمة الله وبركاته.

قالت: "سلامٌ قولا من رب رحيم[5]".

قال فقلت لها: رحمك الله ما تصنعين في هذا المكان.

قالت: "منْ يضلل الله فلا هادى له[6]". فعلمت أنها ضالة عن الطريق.

فقلت لها: أين تريدين؟

قالت: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[7]". فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس.

---

[1]- قيس بن عاصم المنقري: أحد أمراء العرب وشجعانهم وعقلائهم، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، والأبيات لعبدة بن الطيب فر رثائه.

[2]- شحط: بعد.

[3]- بلاغات النساء لابن طيفور ص٧٤-٧٥.

[4]- عبد الله بن المبارك: عالم وفقيه مشهور.

[5]- سورة يس، الآية (٥٨).

[6]- سورة الأعراف، الآية (١٨٦).

[7]- سورة الإسراء، الآية (١).

فقلت لها: ما أرى معك طعاما تأكلين.

قالت: "هو يطعمني ويسقين[1]".

فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟

قالت: "فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا[2]".

فقلت لها: إن معي طعام فهل لكِ في الأكل؟

قالت: "ثم أتموا الصيام إلى الليل[3]".

فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر.

قالت: "وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون[4]".

فقلت: لِمَ لا تكلميني مثل ما أكلمك؟

قالت: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[5]".

فقلت: فمن أيّ الناس أنت؟

قالت: "ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا[6]".

فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حِلّ.

قالت: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم[7]".

فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي فتدركي القافلة.

قالت: "وما تفعلوا من خير يعلمه الله[8]".

قال: فأنخت الناقة.

قالت: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم[9]".

---

[1]- سورة الشعراء، الآية (٧٩).

[2]- سورة النساء، الآية (٤٣).

[3]- سورة البقرة، الآية (١٨٧).

[4]- سورة البقرة، الآية (١٨٤).

[5]- سورة ق، الآية (١٨).

[6]- سورة الإسراء، الآية (٣٦).

[7]- سورة يوسف، الآية (٩٢).

[8]- سورة البقرة، الآية (١٩٧).

[9]- سورة النور، الآية (٣٠).

فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي.

فلمَّا أرادت أن تركب، نفرت الناقة، فمزقت ثيابها، فقالت: "وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم[1]".

فقلت لها: اصبري.

قالت: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون[2]".

قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح.

فقالت: "واقصد في مشيك واغضض في صوتك[3]". فجعلت أمشي رويدا رويدا وأترنم بالشعر.

فقالت: "فاقرؤوا ما تيسر من القرآن[4]".

فقلت لها: لقد أوتيت خيرا كثيرا.

قالت: "وما يذكر إلا أولوا الألباب[5]".

فلمَّا مشيت بها قليلا، قلت: ألكِ زوج؟

قالت: "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم[6]".

فسكتُ ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة، فمن لكِ فيها؟

فقالت: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا[7]".

فعلمت أنَّ لها أولادا، فقلت: وما شأنهم في الحج؟

قالت: "وعلامات وبالنجم هم يهتدون[8]".

فعلمت أنهم أولاد الركب، فقصدت القباب والعمارات، فقلت: هذه القباب، فمن لكِ فيها؟

قالت: "واتخذ الله إبراهيم خليلا[9]"، "وكلَّم الله موسى تكليما[10]"، "يا يحي خذ الكتاب بقوة[2]".

---

[1]- سورة الشورى، الآية (٣٠).

[2]- سورة الزخرف، الآيات (١٣-١٤)

[3]- سورة لقمان، الآية (١٩).

[4]- سورة المزمل، الآية (٢٠).

[5]- سورة البقرة، الآية (٢٦٩)؛ وسورة آل عمران، الآية (٧).

[6]- سورة المائدة، الآية (١٠١).

[7]- سورة الكهف، الآية (٤٦).

[8]- سورة النحل، الآية (١٦).

[9]- سورة النساء، الآية (١٢٥).

فناديت يا إبراهيم، يا موسى، يا يحي، فإذا أنا بشباب كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلمَّا استقر بهم الجلوس.

قالت: "فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه[٣]".

فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدي، فقالت: "كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية[٤]".

فقلت: الآن طعامكم عليَّ حرام حتى تخبروني بأمرها.

فقالوا: هذه أمنا لها أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء.

فقلت: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[٥]".

السيدة سكينة تفصل بين الشعراء

*قال أبو عبد الله الزبيري: اجتمع راوية جرير وراوية كُثَيِّر وراوية جميل وراوية الأحوص وراوية نصيب[٦]، فافتخر كل منهم، وقال صاحبي أشعر، فحكَّموا السيدة سكينة بنت الحسين[٧] رضى الله تعالى عنهم بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر. فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم، فقالت لراوية جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

---

[١]- سورة النساء، الآية (١٦٤).

[٢]- سورة مريم، الآية (١٢).

[٣] - سورة الكهف، الآية (١٩).

[٤]- سورة المرسلات، الآية (٤٣).

[٥]- سورة الجمعة، الآية (٤). المستطرف ج١ ص١٠٠-١٠٢، وثمرات الأوراق ص ٣٤٤-٣٤٥.

[٦]- من الشعراء العرب المعروفين.

[٧]- هي سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، نبيلة شاعرة، كريمة، من أجمل النساء وأطيبهن نفسا، سيدة نساء عصرها، تجالس الأجلة من قريش، وتجمع إليها الشعراء فيجلسون بحيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم فتفاضل بينهم وتناقشهم وتجيزهم، تُوفيت سنة ١١٧هـ -٧٣٥م رحمها الله، أنظر "أعلام النساء" لعمر كحالة ج٢ ص٢٠٢-٢٢٤).

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق. قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره، فهلا قال: فـــادخلي بسلام.

ثم قالت لراوية كُثَيِّر: أليس صاحبك الذي يقول::

يقر بعيني ما يقر بعينها   وأحسن شيء ما به العين قرت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح، أيُحب صاحبك أن يُنكح، قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره.

ثم قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول::

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها   ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أغراه هوى، وإنما طلب عقله، قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره.

ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول::

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   فواحزني من ذا يهيم بها بعدى

فما له همة إلا من يتعشقها بعده، قبَّحه الله وقبَّح شعره، هلا قال:

أهيم بدعد ما حييت فإن مت   فلا صلحت دعد لذي خلة بعدى

ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول::

من عاشقين تواعدا وتراسلا   ليلا إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها   حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبَّحه الله وقبَّح شعره، هلا قال: تعانقا فلم تثن على واحد منهم. وأحجم رواتهم عن جوابها رضى الله عنها[1].

*وفي رواية أنه اجتمع في ضيافة سكينة بنت الحسين: جرير والفرزدق وجميل ونـــصيب، فمكثوا أياما ثم أَذِنَتْ لهم، فدخلوا فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم، فأخرجـــت إلـــيهم جارية لها وضيئة، وقد روت الأشعار والأحاديث، فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال الفرزدق: هـــا أنـــا ذا. قالت: أنت القائل:

هما دلّياني من ثمانين قامة   كما انقض باز أقتمُ الريش كاسرُه[2]

فلمَّا استوت رجلاي بالأرض قالتا   أحيّ يرجّى أم قتيل نحاذرُه

فقلت: ارفعا الأسباب لا يشعروا بنا   ووليت في إعجاز ليل أدابره

أحاذر بوّابين قد وكلا بنا   أو احمر من ساج تئطُّ مسامره[1]

---

[1]- المستطرف ج١ ص١١٢-١١٣.

[2]- أقتم الريش: أسوده.

فأصبحتُ في القوم القعود وأصبحتْ مغلقة دوني عليها دساكرُه
يرى أنها أضحت حصانا وقد جرى لنا برقاها ما الذي أنا شاكره

قال: نعم، أنا قلته.

قالت: ما دعاك إلى إفشاء سِرك؟ أفلا سترت على نفسك وعليها، خذ هذه الألف وانصرف.

قال: بل اتركها واللحاق بأهلي أجمل.

ثم دخلت وخرجت، فقالت: أيكم جرير. قال: ها أنا ذا. قالت: أنت القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فرجعى بسلام[2]
تجرى السواك على أغرّ كأنه برد تحدَّر من متون غمام[4]
لو كان عهدك كالذي حديثنا لوصلت ذاك فكان غير رِمام[5]
إني أواصل من أردت وصاله بحبالٍ لا صلفٍ ولا لوامِ

قال جرير: أنا قلته.

قالت: أفلا أخذت بيدها ورحبت بها، وقلت: فادخلي بسلام، أنت رجل عفيف، وقيل ضعيف، خذ هذين الألفين والحق بأهلك.

وخرج الفرزدق حاجا، فلمَّا قضى حجه عدل إلى المدينة، فدخل إلى سكينة بنت الحسين فسلَّم، فقالت له: يا فرزدق من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت أشعر منك جرير الذي يقول:

بنفسي مَنْ تجنّبُه عليّ عزيزٌ عليّ، ومَنْ زيارتُه لِمامُ[3]
ومَنْ أمسى وأصبحُ لا أراه ويطرقنى إذا هجع النيامُ[4]

فقال: والله لو أذنت لأسمعتك أحسن منه.

قالت: أقيلوه فاخرج.

ثم عاد إليها من الغد فدخل عليها، فقالت: يا فرزدق من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول:

---

[1]- تئط: تحن.

٣- طرقتك: أتيتك ليلا.

٤- السواك: عود تنظف به الأسنان، وأغرّ: أي فم أغر ويريد أسنانها.

٥- غير رمام: غير بال.

[3]- زيارة لمام: سريعة وخاطفة.

[4]- هجع: نام ليلا.

لو لا الحياءُ لعادتي استعبارُ ولزرتُ قبْرَك والحبيبُ يزارُ[1]

كانت إذا هجر الضجيعُ فراشها كتم الحديث وعفّت الأسرارُ

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكرّ عليهم ونهارُ

فقال: والله لئن أذنت لي لأسمعتك أحسن منه. فأمرت به فأُخرج ثم عاد إليها في اليوم الثالث، وحولها مولدات كأنهن التماثيل. فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأُعجب بها وبُهت ينظر إليها. فقالت له سكينة: يا فرزدق من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت، صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إن العيون التي في طْرفها مرضٌ قتلننا ثم لم يُحين قتلانا

يصرعْنَ ذا اللبِ حتى لا حراك به وهنَّ أضعفُ خلق الله أركانا

أتبعتهم مقلة إنسانها غرق هل ما تلرى تاركا للعين إنسانا

فقال : والله لئن تركتني لأسمعتك أحسن منه، فأمرت بإخراجه، فالتفت إليها، وقال : يا بنت رسول الله إن لي عليك حقا عظيما ضربت إليك من مكة إرادة التسليم عليك، فكان جزائي من ذلك تكذيبي وطردي، وتفضيل جرير عليَّ، ومنعك أن أنشدك شيئا من شعري، وبي ما قد عيل منه صبري، وهذه المنايا تغدو وتروح، ولعلى لا أفارق المدينة حتى أموت، فإذا أنا مت فمري بي أن أدفن في كفني وأدفن في هذه الجارية يعنى التي أعجبته، فضحكت سكينة وأرت له بالجارية، فخرج بها أخذا بريطتها[2]، وأمرت بالجواري فدفعن في أقفيتها، ونادته يا فرزدق! احتفظ بها وأحسن صحبتها فإنى آثرتك بها على نفسي.

وركبت سكينة ذات ليلة في جواريها، فمرّت بعروة[3] بن أذينة وهو في فناء قصر ابن عيينة، فقالت لجواريها: مَنْ الشيخ ؟ فقالوا: عروة، فعدلت إليه، فقالت: يا أبا عمر أنت تزعم انك لم تعشق قط، وأن لك مروءة، وأن غزلك من وارد عفة، وأنك نقى، وأنت تقول :

قالت وأبثثُتها وجدي فبحتُ به قد كنتَ عندي تحب السترَ فاستتر

ألست تبصرُ من حولي فقلت لها غطّي هواكِ وما ألقي على بصري

كلٌّ من ترى حولي من جوار أحرارٌ إن كان هذا الكلام من قلب سليم قط. فهذان قد كنتما هواهما، فنمت شواهد نجواهما لأن من اغتمس في بحر الهوى نمت عليه شواهد الضنى.

[1]- الاستعبار: البكاء، واستعبرت العين: دمعت.

[2]- الريطة : الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ونسجا واحدا.

[3]- عروة بن أذينة : هو عروة بن يحيي، شاعر غزل، من أهل المدينة، وهو من الفقهاء والمحدثين أيضا.

وقيل: قالت ابنة عثمان بن عفان في مأتم كانت فيه سكينة: أنا بنت الشهيد، فسكتت سكينة، فقال المؤذن: أشهد أن محمدا رسول الله، قالت سكينة: هذا أبي وأبوك، فقالت العثمانية: لا أفخر عليكم أبدا[1].

ما يمنعك من نظيرتها في جمالها

*قال الحكم بن صخر الثقفي: خرجت حاجا مختفيا، فلمَّا كنت ببعض الطريق أتتني جاراتان من بنى عُقيل لم أر أحسن منهما وجوها، ولا أظرف ألسنة ولا أكثر علما وأدبا، فقصرت بهما يومي، فكسوتهما، ثم حججت من قابلٍ[2]، ومعي أهلي، وقد أصابتني علّة فنصل لها خضابي[3]، فلمَّا صرت إلى ذلك الموضع، فإذا أنا بإحداهما، فدخلت عليَّ، فسألت مسألة منكر فقلت: فلانة!

قالت: فدىً ذلك أبى وأمي! تعرفني وأنكرك؟

قلت: أنا الحكم بن صخر.

قالت: إني رأيتك عام أول شابا سوقة، وأراك العام ملكا شيخا، وفي دون هذا ينكر المرء صاحبه.

قلت: ما فعلت أختك؟

قالت: تزوجها ابن عم لها، وخرج بها إلى نجد فذلك حيث يقول:

إذا ما قفلنا نحو نجد وأهله فحسبي من الدنيا قفولٌ إلى نجد

فقلت: لو أدركتها لتزوجتها.

فقالت: ما يمنعك من شقيقتها في حسبها، ونظيرتها في جمالها؟– تعنى نفسها.

قلت: يمنعني من ذلك ما قال كُثير:

إذا وصلتنا خلَّة كي تزيلنا أبينا وقلنا الحاجبية أول[4]

فقالت: فكُثير بيني وبينك أليس هو القائل:

هل وصل عزة إلا وصل غانية في وصل غانية من وصلها خلف

فسكِّت عيًّا عن جوابها[1].

---

[1]– العقد الفريد لابن عبد ربه.

[2]– قابل: عام أول.

[3]– نصل الخضاب: زال لونه.

[4]– الخلة: الخليلة والصاحبة.

كوة موفاه بكلة حمراء

*حدَّث متمِّم العبدي قال: خرجت من مكة زائرا لقبر النبى، فـإنى بـسوق الجحفـة[2] إذا جويرية تسوق بعيرا وتترنم بصوت مليح طيب حلو في هذا الشعر:

ألا أيُّها البيت الذى حيل دونه		بنا أنت من بيت وأهلُك من أهل
بنا أنت من بيت وحولك لذَّةٌ		وظلُّك لو بسطاع بالبارد والسهل
ثلاثة أبيات فبيت أحبُّهُ		وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى

فقلت: لمَنِ هذا الشعر يا جويرية؟

قالت: أما ترى تلك الكُوة[3] الموقّاة بالكلَّة[4] الحمراء؟

قلت: أراها.

قالت: من هناك نهض هذا الشعر.

قلت: أو قائله في الأحياء؟

قالت: هيهات لو أنَّ لميتٍ أن يرجع لطول غيبته لكان ذلك.

فأعجبني فصاحة لسانها، ورقة ألفاظها، فقلت لها: ألك أبوان؟

فقالت: فقدت خيرهما وأجلهما، ولى أم.

قلت: وأين أمك؟

قالت: منك بمرأى ومسمع.

قال، فإذا امرأة تبيع الخرز على ظهر الطريق بالجحفة، فأتيتها فقلت: يا أُمَّتاه، اسـتمعي منى.

فقالت لها: يا أمَّة، فاستمعي من عمى ما يلقيه إليك، فقالت: حيَّاك الله، هيه هل من جائيـة خبر[5].

قلت: أهذه ابنتك؟

قالت: كذا كان يقول أبوها.

---

[1] -عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٨ – ٢٩، ومجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٨٢ .

[2] - الجحفة: قرية كبيرة على طريق المدينة.

[3] - الكوة: النافذة.

[4] - الكلة: الستارة.

[5] -من جائية خبر: أي من خبر يجوب البلاد.

قلت: أفتزوجنيها؟

قالت: ألعلّةٍ رغبت فيها؟ فما هي، والله ما عندها من جمال، ولا لها مال.

قلت: لحلاوة لسانها، وحُسْن عقلها.

فقالت: أيّنا أملكُ بها؟ أنا أم هي بنفسها.

قلت: بل هي بنفسها.

قالت: فإيّاها فخاطب.

فقلت: لعلها أن تستحي من الجواب في مثل هذا.

فقالت: ما ذاك عندها، أنا أخبر بها.

فقلت: يا جارية أما تستمعين ما قالت أمك؟

قالت: قد سمعت.

قلت: فما عندك؟

قالت: أو ليس حسبك أن قلت: إني أستحى من الجواب في مثل هذا، فإن كنت أستحى في شيء فلم أفعله؟ أتريد أن تكون الأعلى وأكون بساطك، لا والله لا يشد عليَّ رجل حواءه[1] وأنا أجد مذقة[2] لبن أو بقلة بها مِعاى[3].

قال: فورد والله عليَّ أعجب كلام على وجه الأرض.

فقلت: أو أتزوجك والإذن فيه إليك، وأعطى الله عهدا أنى لا أقربك أبدا إلا عن إرادتك؟

قالت: إذا والله لا تكون لى في هذا إرادة أبدا، ولا بعد الأبد إنْ كان بَعْدَهُ بعد.

فقلت: فقد رضيت بذلك، فتزوجتها وحملتها وأمها معي إلى العراق، وأقامت معي نحـوا من ثلاثين سنة ما ضممت عليها حواي قط، وكانت قد علقت من أغاني المدينة أصـواتا كثيـرة، فكانت ربما ترنمت بها فأشتهيتها، فقلت: دعيني من أغانيك هذه فإنها تبعثني على الدنو منك، قال:

[1]- حواءه : أي مكانه أو فراشة الذى يحويه.

[2]- مذقة: اللبن المخلوط ماء.

[3]- مِعاى: أمعائى.

فما سمعتها رافعة صوتها بغناء بعد ذلك حتى فارقت الدنيا، وإنَّ أمها عندي حتى الساعة، فقلـت: ما أدرى متى دار في سمعي حديث امرأة أعجب من حديث هذه[1].

هيهات صارت الفتيان خمما

*دعا عمرو بن هند بامرأة من بنى حنظلة، فقال لها: مَنْ أنتِ؟

قالت: أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر.

فقال: إني لأظنك أعجمية.

فقالت: ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم:

إني لبنت ضمرة بن جابر ساد معدّا كابرٌ عن كابر

إني لأخت ضمرة بن ضمرة إذا البلاد لفعت بجمره

قال: أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار.

قالت: أما والذى أسأله أن يضع وسادك، ويخفض جناحك، ويهدّ عمادك، ويسلبك ملكـك، ما أنا بأعجمية، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثدي وأسافلها دمى، والله ما أدركت ثـأرا، ولا محـوت عارا.

فأمر بإحراقها، فلمّا نظرت إلى النار، قالت: ألا فتىً مكان عجوز، فذهبت مثلا. ثم مكث ساعة فلم يفدها أحد، فقالت: هيهات صارت الفتيان حمما، فذهبت مثل. ثم أُلقيت في النار.

غاب الوافد

*قال الأصمعى: أتت امرأة حاتم بن عبد الله ابن أبى بكرة، فقالت له: أتيتـك مـن بـلاد شاسعة، ترفعنى رافعة، وتخفضنى خافضة، لُمِلمَّاتٍ من الأمور حلّت بى فبـرين لحمـى، ووهـن عظمى[2]، وتركننى والهة كالحريض[3]،وقد ضاق بى البلد العريض، هلك الولد، وغاب الوافد وعـدم الطارف والتالد[4]، فسألت في أحياء العرب عن المرجو سببه، المحمود نائله، الكريم شمائله، فدللتُ

---

[1]- الأغاني للأصفهاني ج ٢٢ ص ٣١٥ –٣١٦.

[2]- وهن: ضعف.

[3]- الحريض: الساقط الذي لا يستطيع النهوض.

[4]- الوافد:القادم، والطارق:المال الحديث، والتالد: المال القديم.

عليك، وأنا امرأة من هوزان، فافعل بي أحد ثلاث: إما أن تقيم أودى[١]، وإما أن تُحسن صــفدى[٢]، وإما أن تردني إلى بلدي. فقال: بل أجمعهن إليك حبا وكرامة[٣].

وافق شنّ طبقة

*قال الشرقى بن فطامى: كان شنُ من دهاة العرب، فقال: والله لأطوفن حتى أجد امــرأة مثلى فأتزوجها، فسار حتى لقى رجلا يريد قرية يريدها شنّ، فصحبه.

فلما انطلقا قال له شنّ: أتحملني أم أحملك؟

فقال الرجل: يا جاهل كيف يحمل الراكبُ الراكبَ؟

فسارا حتى رأيا زراعا قد استحصد، فقال شنّ: أترى هذا الزرع قد أُكل أم لا؟

فقال يا جاهل: أما تراه قائما.

فمرا بجنازة، فقال: أترى صاحبها حيا أو ميتا؟

فقال: ما رأيت أجهل منك، أتراهم حملوا إلى القبور حيا؟

ثم سار به الرجل إلى منزله، وكانت له ابنة تُسمى "طبقة" فقصَّ عليها القصة، فقالت: أمَّا قوله: أتحملنى أم أحملك، فأراد تحدثنى أم أحدثك حتى نقطع طريقنا، وأما قوله: أترى هذا الــزرع قد أكل أم لا، فأراد باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا، وأمَّا قوله في الميت، فإنه أراد أترك عقبا يحيا بـــه ذكره أم لا، فخرج الرجل فحادثه ثم أخبره بقول ابنته، فخطبها إليه فزوجه إياها، فحملها إلى أهله، فلمّا عرفوا بعقلها ودهاءها، قالوا: وافق شنّ طبقة[٤].

جرأةٌ و بلاغةٌ

* قال العباس بن بكار: إن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية وهى عجوز كبيرة؛ فلمَّا رآها معاوية، قال: مرحبا بك وأهلا يا عمة، فكيف كنت بعدنا؟

فقالت: يا بن أخى، لقد كفرت يدَ النعمة وأسأتَ لابن عمك الصحبة وتسميت بغير اســمك، وأخذت غير حقك، من غير دين كان منك ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام، بعــد أن كفــرتم

---

[١]- أن تقيم أودى:أن تقوم بإعالتي.
[٢]- أن تحسن صفدي: أن تحسن عطائي.
[٣]-الأذكياء لابن الجوزي ص ٢٣٨ .
[٤]- المرجع السابق ص ٢٥٠٠ .

برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتعس الله منكم الجدود، وأضرع منكم الخدود، وردّ الحقّ إلى أهله ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور، فوليت علينا من بعده تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزله بنى إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنة وغايتكم النار.

فقال لها عمرو بن العاص: كفي أيتها العجوز الضالة وأقْصرى عن قولك مع ذهاب عقلك إذ لا تجوز شهادتك وحدك.

فقالت له: وأنت يا بن النابغة تتكلم، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة، وأخذهن لأجرة! اربَعْ على طلعك، واعن بشأن نفسك، فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم منصبها، ولقد أدعاك خمسة نفر من قريش "كلهم يزعم أنه أبوك"، فسئلت أمك عنهم، فقالت: كلهم أتانى فانظروا أشبههم فألحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به.

فقال مروان: كفي أيتها العجوز وأقصدى لما جئت له.

فقالت: وأنت أيضا يا بن الزرقاء تتكلم! ثم التفتت الى معاوية، فقالت: والله ما جرّأ علىَّ هؤلاء غيرك وإن أمك القائلة في قتل حمزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحربُ بعد الحرب ذات سعر

ما كان لى عن عتبةٍ من صبر فشكرُ وحشيّ عليّ دهرى

حتى ترمَّ أعظمى في قبرى.

فأجابتها بنتُ عمى وهى تقول:

خزِيتِ في بدرٍ وبعدَ بدر يا بنة جبار عظيم الكفر

فقال معاوية: عفا الله عمّا سلف يا عمة! هات حاجتك.

قالت: ما لي إليك حاجة، وخرجت عنه.

فقال معاوية لأصحابه: والله لو كلّمها مَنْ في مجلس جميعا لأجابت كل واحد بغير ما تُجيب به الآخر، وإنَّ نساء بنى هاشم لأنصح من رجال غيرهم[1].

---

[1]- العقد الفريد لابن عبد ربه.

مهرةٌ عربيةٌ

*وحُكى أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فوصُف للحجاج حسنها، فأنفذ إليها يخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوَّج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم، ودخل بها.

ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرّة، وكانت هند فصيحة أديبه، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهى تنظر في المرآة وتقول:

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل.

فإن ولدت فحلا فللّه دُرها وإن ولدت بغلا فجاء به البغل.

فانصرف الحجاج راجعا ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم وهى التي كانت لها عليه، وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد. فدخل عبد الله بن طاهر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنتِ، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله.

فقالت: اعلم يا ابن طاهر إنا والله كنا فما حمدنا وبِنّا فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بنى ثقيف.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصُف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتابا تقول فيه: بعد الثناء عليه، اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ[1] فيه الكلب.

فلمّا قرأ عبد الملك الكتاب، ضحك من قولها وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال.

فلمّا قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه: يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرّة إلى بلدك التي أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التي كان فيها أول.

فلمّا قرأ عبد الملك ذلك الكتاب، ضحك ضحكا شديدا وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك. فلمّا قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهزة فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرّة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف

---

[1]- ولغ : أدخل فمه ولسانه.

وركب حولها جواريها وخدمها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هنـــد تتواغـــد[1] عليه وتضحك مع "الهيفاء" دايتها، ثم إنها قالت "للهيفاء": يا داية، أكشفي لـــي ســـجف[2] المحمـــل، فكشفته فوقع وجهها في وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة   تركتك فيها كالقباء المفرج.[3]

فأجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت   بما فقدناه من مال ومن نشب[4]

فالمال مكتسب والعز مرتجع   إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بـــدينار علـــى الأرض ونادت: يا جمَّال، إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا. فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا دينارا، فقال: إنما هو دينار.

فقالت: بل هو درهم.

قال: بل دينار.

فقالت: الحمد لله سقط منا درهم فعوّضنا الله دينارا.

فخجل الحجاج فسكت ولم يرد جوابا، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوّج بهـــا وكان من أمرها ما كان[5].

---

[1]- تتواغد: تفعل أفعالا فيها إساءة وتدل على اللؤم .

٢- سجف: الستر.

٣- القباء: الثوب، والمفرج: ذو الفروج أي الفتح المتسعة.

٤- النشب: المال من خيل وإبل وغيرهما.

٥- المستطرف ج١ ص ٩٦ - ٩٧ .

أفتعرف القائل؟!

*عن الزيادي والهيثم بن عُدَّي قال[1]: نزل بامرأة رجل من العرب، والمرأة من بني عامر، فأكرمته وأحسنت قِراه[2]، فلمَّا أراد الرحيل تمثل ببيت يهجوها فيه:

لعمرك ما تبلى سرابيل[3] عامر　　　من اللؤم مادامت عليها جلودها

فلمَّا أنشده، قالت لجاريتها: قولي له ألم تحسن إليك، وتفعل؟ هل رأيت تقصيراً؟

قال: لا.

قالت: فما حملك على البيت؟

قال: جرى على لساني. فخرجت إليه جارية من بعض الأخبية[4]، فحدثته حتى أنس واطمأن، ثم قالت له: مِمّنْ أنت يا ابن عم؟

قال: رجلٌ من بني تميم[5].

قالت: أتعرف الذي يقول:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا[6]　　ولو سلكت سبل المكارم ضلت

أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى　　خلال المخازي عن تميم تجلت

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة　　يكرّ على صفّي تميم لولّت

ولو جمعت يوماً تميم جموعها　　على ذرة مربوطة لا ستلقت

تميم كجحش السوء يرضع أمه　　ويتبعها بالرغم إن هي ولت

ذبحنا فسمينا على ما ذبيحنا　　وما ذبحت يوماً تميم فسمت

قال: لا، والله ما أنا من تميم.

---

[1]- وردت هذه الرواية أيضا في كتاب "مروج الذهب" للمسعودي عن الرقاشي قال: "كان السفاح (عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب أول خلفاء الدولة العباسية) يحب مسامرة الرجال، وإني سمرت عنده ذات ليلة، فقال يا رقاشي، أخبرني بأظرف ما سمعته من الأحاديث. فقلت: يا أمير المؤمنين، وإن كان في بني هاشم؟ قال: ذلك أعجب إليَّ. قلت: يا أمير المؤمنين، نزل رجل من تنوخ بحيّ من بني عامر بن صعصعة، فجعل لا يحطّ شيئا من متاعه إلاّ تمثلّ بهذا البيت..." البيت أعلاه والرواية.

[2]- القِرى: ما يقدم إلى الضيف من طعام ونحوه.

[3]- السربيل: مفرده سربال، وهو ما يُلبس من قميص أو درع.

[4]- الأخبية : جمع مفرده: الخباء، وهو بيت من صوف أو وبر أو شعر يُقام على عمودين أو ثلاثة.

[5]- تميم وغيرها من الأسماء التي وردت على لسان الجارية قبائل عربية مشهورة.

[6]- القطا: طيور في حجم الحمام، مفردها قطاة.

قالت: ما أقبح الكذب بأهله، فممَنْ أنت؟

قال: رجل من بني ضبّة.

قالت: أفتعرف الذي يقول:

لقد زرقت عنياك يا ابن معكبر	كما كل ضبي من اللؤم أزرق

قال: لا، والله ما أنا من بنى ضبة.

قالت: فممن؟

قال: من بني عجل.

قالت: أفتعرف القائل:

أرى الناس يعطون الجزيل وإنما	عطاء بني عجل ثلاث وأربع

إذا مات عجلي بأرض فإنما	يخط له فيها ذراع وإصبع

قال: لا، والله ما أنا من بني عجل.

قالت: فمِمَنْ؟

قال: من الأزد.

قالت: أفتعرف القائل:

**فما جزعت أزدية من ختانها	ولا أكلت لحم القنيص[1] المعقب**

**ولا جاءها القناص بالصيد في الخبا	ولا شربت في جلد معلب**

قال: لا، والله ما أنا من الأزد.

قال: فمِمَن؟

قال: من بني عبس.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا عبسية ولدت غلاما	فبشرها بلوم مستفاد

قال: لا، والله ما أنا من بني عبس.

قالت: فمِمَنْ؟

قال: رجلٌ من بني فزارة.

قالت: أفتعرف القائل:

لا تأمنن فزرايا خلوت به	على قلوصك[2] واكتبها[3] بأسيار[1]

[1]- القنيص : ما يُصاد.

[2]- القلوص: من الإبل الفتية المجتمعة الخلق.

[3]- أكتبها : أجمعها.

قال: لا، واالله ما أنا من بني فزارة.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بجيلة.

قالت: أفتعرف القائل:

سألنا عن بحيلة حين جاءت لتخبر أين قربها القرار
فما تدري بحيلة إذ سألنا أقحطان أبوها أم نزار
فقد وقعت بجيلة بين بين وقد خلعت كما خلع العذار

قال: لا، واالله ما أنا من بني بجيلة.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بني نمير.

قالت: أفتعرف القائل:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
ولو وضعت فقاح[2] بني نمير على خبث الحديد إذا لذابا

قال: لا، واالله ما أنا من بني نمير.

قالت: فممَنْ؟

قالت: أفتعرف القائل:

إذا نصّ الكرام إلى المعالي تنحى الباهلي عن الزحام
إذا ولدت حليلة بأهلي غلاما زيد في عدد اللئام
ولو كان الخليفة باهليا لقصر عن مساماة الكرام
وعرض الباهلي وإن توقى عليه مثل منديل الطعام

قال: لا، واالله ما أنا من باهلة.

قالت: فممَنْ؟

قال: من ثقيف.

قالت: أفتعرف القائل:

أضل الناسبين لنا ثقيف فما لهم أب إلا الضلال
فإن نسبت أو انتسبت ثقيف إلى أحد فذاك هو المحال
خنازير الحشوش فقاتلوهم فإن دماءهم لكم حلال

قال: لا، واالله ما أنا ثقيف.

قالت: فممَنْ؟

---

[1]– الأسيار: مفردها سير، وهو قطعة مستطيلة من الجلد وتجمع على سيور وسيورة.

[2]– الفقاح : مفردها الفقحة، وهي حلقة الدبر.

قال: من سليح.

قالت: أفتعرف القائل:

فإن سليحا شتت الله شملها

قال: لا، والله ما أنا من سليح.

قالت: فممَنْ؟

قال: من خزاعة.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا فخرت خزاعة في ندي   وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهلا   بزق بئس مفتخر الفجور[1]

قال: لا، والله ما أنا من خزاعة.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بني يشكر.

قالت: أفتعرف القائل:

ويشكر لا تستطيع الوفا   ولو رامت الغدر لم تغدر
قبيلة عيشتها في الكرى[2]   لئام المناخر والعنصر

قال: لا، والله ما أنا من يشكر.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بني أمية.

قالت: أفتعرف القائل:

وَهَى من أمية[3] بنيانها   فهان على الناس فقدانها
وكانت أمية فيما مضى   جريا على الله سلطانها
فلا آل حرب أطاعوا الإله   ولم يتق الله مروانها

قال: لا، والله ما أنا من بني أمية.

قالت: فممَنْ؟

---

[1]- يقصد أبا غبشان الذي كان يلي الكعبة، فاجتمع مع قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي سيد قريش في عصره، بالطائف على الشرب، فلما سَكِرَ اشترى منه قصي ولاية البيت بزقّ خمر، وأخذ منه مفاتيحه وسار بها إلى مكة وقال: يا معشر قريش، هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم. وأفاق أبو غبشان فندم فقيل: "أندم من أبي غبشان" و "أخسر من أبي غبشان" و "أحمق من أبي غبشان".

[2]- الكرى: النعاس أو النوم.

[3]- وهن : ضعف.

قال: من عنزة.

قالت: أفتعرف القائل:

ما كنت أخشى وإن كان الزمان لنا زمان سوء بأن تغتابني عنزه
فلست من وائل إن كانت ذا حذر ممن يضل كما قد ضلت الحرزه

قال: لا، والله ما أنا من بني عنزة.

قالت: فممَنْ؟

قال: من كنده.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا ما افتخرت الكندي ذو البهجة بالطره
فدع كندة للنسج فأعلا غخرها غره

قال: لا، والله ما أنا من كنده.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بني أسد.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا أسدية بلغت ذراعا فزوِّجها ولا تأمن زناها
وإنّ أسدية خضبت يديها[1] ولما تزن أشرك والداها

قال: لا، والله ما أنا من بني أسد.

قالت: فممَنْ؟

قال: من همدان.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا همدان دارت يوم حرب رحاها فوق هامات الرجال
رأيتهم يحثون المطايا سراعا هاربين من القتال

قال: لا، والله ما أنا من بني همدان.

قالت: فممَنْ؟

قال: من نهد.

قالت: أفتعرف القائل:

نهد لئام إذا ما حلّ ضيفهم سود وجوههم كالزفت والقار
والمستغيث بنهد عند كربته[2] كالمستجير من الرمضاء بالنار

---

[1] - خضبت يديها: زينتها بالحناء.

[2] - الكربة: المصيبة.

قال: من قضاعة.

قالت: أفتعرف القائل:

لا يفخرن قضاعي بأسرته   فليس من يمن محضا ولا مضر
مذبذبين فلا قحطان والدهم   ولا نزار فسيبهم إلى سقر

قال: لا، والله ما أنا من قضاعة.

قالت: فممْ؟

قال: من بني شيبان.

قالت: أفتعرف القائل:

شيبان رهط لهم عديد   وكلهم معرق لئيم
شربهم من فضول ماء   يفضل عن أسوة العميم

قال: لا، والله ما أنا من شيبان.

قالت: فممن؟

قال: من تنوخ.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا تنوخ قطعت منهلاً   في طلب الغارات والثار
أتت من بحري مرار العلى   وشهرة في الأهل والجار

قال: لا، والله ما تنوخ.

قالت: فممَنْ؟

قال: من ذُهل.

قالت: أفتعرف القائل:

إنْ ذهلاً لا يسعد الله ذهلاً *** شر جيلٍ يظل تحت السماء

قال: لا، والله ما أنا من بني ذُهلٍ.

قالت: فممَنْ؟

قالت: أفتعرف القائل:

وهل مزينة إلا من قبيلة   لا يُرتجى كرم فيها ولا دين

قال: لا، والله ما أنا من مزينة.

قالت: فممَنْ؟

قال: من النخع.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا النخع اللئام عدوا جميعاً تدكدكت[1] الجبال من الزحام
وما يغني إذا صدقت فتيلا ولا هي في الصميم من الكرام

قال: لا، والله ما أنا من النخع.

قالت: فممَنْ؟

قال: من طيء.

قالت: أفتعرف القائل:

وما طيئ إلا نبيط[2] تجمعت فقالوا طيا يا كلمة فاستمرت
ولو أنَّ عصفورا يمد جناحه على دور طئ كلها لا ستظلت

قال: لا، والله ما أنا من طئ.

قالت: فممَنْ؟

قال: من عك.

قالت: أفتعرف القائل:

عك لئام كلهم أبك[3] ليس لهم من الملام فك

قال: لا، والله ما أنا من عك.

قالت: فممَنْ؟

قال: من لخم.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا ما أحتبى قوم لفضل قديمهم تباعد فخر الجود عن لخم أجمعا

قال: لا، والله ما أنا من لخم.

قالت: فممَنْ؟

قال: من جُذام.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا كأس المدام أدير يوما لمكرمة تنحى عن جذام

قال: لا، والله ما أنا من جُذام.

قالت: فممَنْ؟

---

[1]- تدكدكت الجبال: انهدمت وصارت بمستوى الأرض.

[2]- نبيط: نبط فلان البئر أي استخرج ماءها . والنبط: أول ما يظهر من ماء البئر بعد حفرها. وفى البيت قلة عدد طيي وصغر حجمها.

[3]- الأبك: الأجير الذي يسعى في أمور أهله.

قال: من كلب.

قالت: أفتعرف القائل:

فلا تقربن كلباً ولا باب دراها ولايطمعن سار يرى ضوء نارها

قال: لا، والله ما أنا من كلب.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بلقين.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا ما سألت اللؤم أين محله تصب عند بلقين له طرفان

قال: لا، والله ما أنا من بلقين.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بني الحارث بن كعب.

قالت: أفتعرف القائل:

حار بن كعب ألا أحلام تحجزكم عنَّا وأنتم من الجوف الجماخير[1]

لا عيب في القوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

قال: لا، والله ما أنا من بني الحارث بن كعب.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بني سليم.

قالت: أفتعرف القائل:

إذا ما سليم جئتها في ملمة رجعت كما قد جئت خزيان نادما

قال: لا، والله ما أنا من سليم.

قالت: فممَنْ؟

قال: من بني فارس.

قالت: أفتعرف القائل:

ألا قل لمعتر[2] وطالب حاجة يريد بنجح نفعها وقضاها

فلا تقرب الفرس اللئام فإنهم يردون مولاهم بخبث رداها

قال: لا، والله ما أنا من فارس.

قالت: فممَنْ؟

---

[1]- الجماخير: مفرده جمخور، وهو الأجوف.

[2]- المعتر: الفقير المعدم.

قال: من الموالى.

قالت: أفتعرف القائل:

ألا من أراد اللؤم والفحش والخنا فعند الموالى الجيد والكتفان

قال: لا، والله ما أنا من الموالى.

قالت: فممَنْ؟

قال: رجلٌ من ولد حام.

قالت: أفتعرف القائل:

ولا تنكحوا أولاد حام فإنهم مشاوية خلق الله حشا ابن أكوع

قال: لا، والله ما أنا من حام.

قالت: فممَنْ؟

قال: رجل من الشيطان الرجيم.

قالت: أفتعرف القائل:

قالت: فعليك لعنة الله، وعلى الشيطان الرجيم، أفتعرف الذي يقول:

ألا ياعباد الله هذا عدوكم وذا ابن عدوّ الله إبليس خاسئا

قال: الله الله! أقيليني العثرة، فو الله ما ابتليت بمثلك قط[١].

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة

*وفد الحجاج بن يوسف لدار الخلافة، فقدم والوليد بن عبد الملك عائدا من رحلة صيد، فلما رآه الحجاج نزل عن فرسه واندفع إليه يقبل يده، ثم تأخر قليلا ومشى وعليه درع وكنانة[٢] وقوس عربية، فقال له الوليد: اركب يا أبا محمد. فقال: دعني يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد فإن ابن الزبير[٣] وابن الأشعث[٤] شغلاني عنك.

فشدَّد الخليفة في الدعوة، فركب الحجاج وسار الركب حتى دخل القصر، وانصرف الوليد فبدّل ثيابه وعاد في غلالة رقيقة[٥]، وأخذ مجلسه ثم أذن للحجاج، فدخل عليه وهو في هذه الثياب،

١- طبقات الشافعية الكبرى ج١ ص ٣٦٨-٣٧٩ ، ومروج الذهب للمسعودى ج٢ ص ٣٢٣.

٢- كنانة: وعاء من الجلد يُحفظ به السهام.

٣- ابن الزبير: هو عبد الله بن الزبير.

٤- ابن الأشعث: هو عبد الرحمن بن الأشعث.

٥- غلالة: قميص خفيف.

وأطال عنده الجلوس. وبينما الوليد يتحدث مع الحجاج إذ جاءت جارية من جوارى القصر وأسرّت إلى الوليد شيئا، ثم ذهبت وعادت فأسرّت إليه حديثا ثم انصرفت.

قال الوليد للحجاج: أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد؟

قال: لا، والله.

قال: بعثتها بنت عمى[1] تقول: ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة، فأرسلت إليها إنه الحجاج، فراعها ذلك، وقالت: والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق.

فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين دعْ عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة[2]، فلا تطلعهن على سرك، ولا مكايدة عدوك، ولا تطمعهن في غير أنفسهن، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن، وإياك مشاورتهن في الأمور، فإن رأيهن إلى أفن[3] وعزمهن إلى وهن[4]، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الجلوس معها، فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك[5].

ثم نهض الحجاج، فخرج ودخل الوليد على أمّ البنين فأخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أمير المؤمنين، أحبُّ تأمره غدا بالتسليم عليَّ.

فقال: سأفعل.

فلما غدا الحجاج على الوليد، قال له: يا أبا محمد، إن أمّ البنين تطلبك فاذهب وسلِّم عليها.

فقال: أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين.

فقال: لا بد من ذلك.

فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلا، ثم أذنت له، فدخل فلم تأذن له بالجلوس، وتركته قائما، ثم قالت تخاطبه: إيه يا حجاج أنتَ المُمتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث، أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة، ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود وُلِدَ في الإسلام. وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام فأنجاك كفاحهم، ولولا ذلك لكنت أذل من الذل. وأما

---

[1]- المقصود هنا زوجته أم البنين ابن عبد العزيز.

[2]- قهرمانة: رئيسة الجاريات في القصر.

[3]- أفنٌ: فسادٌ.

[4]- وهن: ضعف.

[5]- أبين: أظهر.

ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نساءه فإن كن ينفرجن[1] عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما حقه بالأخذ عنك و القبول منك، وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مصغٍ إلى نصيحتك، قاتل الله الشاعر، وقد نظر إليك وسنان غزالة الحرورية[2] بين كتفيك فقال الشاعر:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة ربذاء تفزع من صفير الصافر[3]

هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

ثم قالت له: هلا خرجت عنى؟

فرجع إلى الوليد من فوره، فقال: يا أبا محمد ما كنت فيه.

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحبّ من ظهرها.

فضحك الوليد، ثم قال: يا أبا محمد، إنها بنت عبد العزيز.

وزراء صاحبك خيرٌ من وزرائك

*وقيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير.

فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك يا حجاج.

قال: ومنْ هو صاحبي؟

قالت: فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه[4].

وأُتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه فقيل لها: الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه.

فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى مَنْ لا ينظر الله إليه[5].

---

[1]- ينفرجن: تقصد الولادة.

[2]- غزالة سنان الحرورية: امرأة من الخوارج هجمت على الحجاج في معركة من المعارك وهزمته.

[3]- ربذاء: خائفة.

[4]- المستطرف ج١ ص٩٩.

[5]- المرجع السابق ج١ ص٩٩.

أقرَّ الله عينك

*قيل: دخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه. فقالت: يا أمير المؤمنين أقرَّ الله عينك، وفرَّحك بما آتاك، وأتمَّ سعدك، لقد حكمت فقسطت.

فقال لها: مَنْ تكونين أيتها المرأة؟

فقالت: مِنْ آل برمك[1] ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم[2].

فقال: أما الرجال، فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأمَّا المال فمردود إليك. ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت المرأة؟

فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرا.

قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أمَّا قولها: أقرَّ الله عينيك أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأمَّا قولها: وفرَّحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى "حتى إذا فرحوا بما أوتوا آخذناهم بغتة[3]"، وأمَّا قولها: وأتَّم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمَّ أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تمْ

وأمَّا قولها: لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى: "وأمَّا القاسطون فكانوا لجهنم حطبا[4]"؛ فتعجبوا من ذلك[5].

احفظ مقالة معشر أخْيار!

*جاء في كتاب "أخبار النساء" لابن القيم الجوزية:

بلغني أن خالدا خرج حاجاً. فلمّا رجع انتهى إلى ماء لكلْب، فإذا هو بشيخ قد أورد إبلا له ومعه ابنة له كأنها ظبية عيطاء تعينه على سقي الإبل، من أتم النساء ما بين قرْن إلى قدم. وهي في بردتين لها قد اتزرت بواحدة وتدرّعت الأخرى. فرأى شيئا لم ير مثله.

---

[1]- برمك: لقب عائلة فارسية نال كثير من رجالها الحظوة لدى خلفاء العباسيين، وقد اشتهرت هذه العائلة بالكرم والسخاء والذكاء حتى تحدَّث بها الركبان، وضُربت بها الأمثال، وربما كان انتشار صيتها سببا من أسباب فتك هارون الرشيد بها ومصادرته لسائر أفرادها. (انظر: "دائرة معارف القرن العشرين" لمحمد وجدي ج٢ ص١٥٣).

[2]- النوال: العطاء.

٣- سورة الأنعام، الآية (٤٤).

٤- سورة الجن، الآية (١٥).

٥- المستطرف ج١ص٨١ ، وثمرات الأوراق ص ٣٣٨.

فقال لمولى له: انطلق إلى هذا الأعرابي فاخطب عليَّ ابنته وأعطه ما سأله. فزوَّجها إياه على مائة من الإبل. وأُهديت إليه في البردتين كما رآها. فلم يزدد إلا سرورا. فكانت تسامره وتنشده أشعار قومها، وتفتخر. فلمّا أغاظته قال: أنسيت البردتين؟ فأعرضت عنه طويلا، ثم أنشأت تقول:

أخالدُ مهلا لا يُعيّر بالفقر — فكم من فتى نذْل الخليقة ذي وفْر
وآخر محمود الخليفة معْوز — من المال لا يُزْري به لازمُ الفقر
ومن ذات بعل في حلي مظاهر — وترْفُلُ في بزّ العراق وفي العطر
مذمّمة الأخلاق والغدْر همّه — وإن مُزجتْ منها البشاشة بالبشر
حَصَانٌ لها خُلقٌ ودلٌّ مُبتَّلٌ — هضيمُ الحشا حوراء آلفةُ الخدر [1]

فلمّا قدم الشام تلقاه عبد الملك بن مروان فسأله عن سفره، فأخبره وحدثه بحديث الأعرابية وبردتيها. فانصرف عبد الملك إلى نسائه فحدثهن بذلك فقلن: يا أمير المؤمنين، أنْ لو بعثت إلى بردتيها حتى ننظر إليهما. فسرَّح رسولا. فلمّا أتى خالدا الرسول، فقالت: ما كنت لأفعل حتى أوجه إليه بأبيات، فإن استحسن أن ينظر إليهما فهو أعلم –فسرَّحت إليه:

يا بن الذوائب من أمية والذي — أفضت إليه خلافة الجبار
فيم استفزَّك خالد بحديثه — حتى هممت بأن ترى أطماري
مهلا أمير المؤمنين، فما الذي — أحببت من ذاكم عليَّ بغار
فلئن رأيت سحيق شمْلي باليا — إني لمنْ قوم ذوى أخطار
صبرٌ على ريب الزمان أعزة — لا يخفرون بذمة وجوار
غُلُبٌ إذا حمى الوطيسُ وجدتهم — صُبُرا لدى الهيجا بنى أحرار
فاترك مقالة خالد وحديثه — واحفظْ مقالة معشر أخيار

قال: فوجَّه إليها عبد الملك بألف دينار، وقال: إنما أردنا استخراج هذا الشعر منكِ.

يا فتى من أي الناس أنتَ؟

*حُكى عن أبى عبد الله النميري أنه قال: كنت يوما مع المأمون، وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر. فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده، كان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قاعدة

---

[1] –حَصان: عفيفة، والخِدر: الستر.

النهد كأنها القمر ليلة تمامه وبيدها قربة قد ملأتها ماء وحملتها على كتفها وصــعدت مــن حافــة النهر.

فانحل وكاؤها[1]، فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاها قد غلبني فوها لا طاقــه لــي بفيها.

قال: فعجب المأمون من فصاحتها، ورمت الجارية القربة من يدها. فقال لها المأمون: يــا جارية منْ أي العرب أنتِ؟

قالت: أنا من بنى كلاب.

قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب.

فقالت: والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كــرام غيــر لئــام يقــرون الــضيف[2] ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى منْ أي الناس؟

فقال: أو عندكِ علم بالأنساب؟

قالت: نعم.

قال لها: أنا من مُضر الحمراء.

قالت: من أي مُضر؟

قال: من أكرمها نسبا وأعظمها حسبا وخيرها أُمّاً وأبا، ممن تهابه مُضر كلها.

قالت: أظنك من كنانة.

قال: أنا من كنانة.

قال: فمن أي كنانة؟

قال: منْ أكرمها مولدا وأشرفها محتدا[3] وأطولها في المكرمات يــدا ممــن تهابــه كنانــة وتخافه.

فقالت: إذن أنتَ من قريش؟

قال: أنا من قريش.

قالت: منْ أي قريش؟

قال: منْ أجملها ذكرا وأعظمها فخرا ممن تهابه قريش كلها وتخشاه.

[1]-وكاؤها: الوكاء: ما يُشد به الكيس وغيره.

[2]- يقرون الضيف: يقدمون له الطعام ويكرمونه.

[3]- المحتد: الأصل.

قالت: أنتَ والله من بنى هاشم.

قال: أنا من بنى هاشم.

قالت: منْ أي هاشم؟

قال: منْ أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ممن تهابه هاشم وتخافه.

قال: فعند ذلك قبّلت الأرض، وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طربا عظيما، وقال: والله لأتزوّجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاحقته العساكر، فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوّجه بها وأخذها وعاد مسرورا وهى والدة ولده العباس والله أعلم[١].

شاة عكرمة

*عن الهيثم بن عُدَّي عن ابن عياش قال: أخبرني موسى السلاماني، مولى الحضرمي وكان أيسرَ تاجر بالبصرة، قال: بينا أنا جالس إذ دخل عليَّ غلام لي، فقال: هذا رجل من أهل أمك يستأذن عليك –وكانت أمه مولاة لعبد الرحمن بن عوف. فقلت: ائذَنْ له.

فدخل شابٌ حلو الوجه، يُعرف في هيئته أنه قرشي في طمرين[٢].

فقلت: من أنتَ يرحمك الله؟

قال: أنا عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: في الرحب و القرب، ثم قلت: يا غلام برّه وأكرمه وألطفْه وأدخله الحمام وأكسه قميصا رقيقا ومبطنا قوهيا ورداء عمريا. وحذونا له نعلين حضرميين.

فلمّا نظر الشاب في عطفيه وأعجبته نفسه، قال: يا هذا، أبغني أشرف أيم[٣] بالبصرة أو أشرف بِكر بها.

قلت: يا ابن أخي معك مال؟

قال: أنا مال كما أنا.

قلت: يا ابن أخي، كُف عن هذا.

[١]- المرجع السابق ج١ ص٩٦.

[٢]- الطمر: الثوب البالي.

[٣]- الأيم: المرأة التي لا زوج لها.

قال: أنظر ما أقول لك.

قلت: فإن أشرف أيم بالبصرة هند ابنة أبي صفرة، أخت عشرة وعمة عشرة وحالها في قومها حالها، وأشرف بِكر بالبصرة المُلاة بنت زرارة بن أوفي الجرشي قاضي البصرة.

قال: أخطبها عليّ.

قلت: يا هذا، إن أباها قاضي البصرة.

قال: انطلق بنا إليه.

فانطلقنا إلى المسجد، فتقدم فجلس إلى القاضي، فقال له: منْ أنتَ يا ابن أخي؟

قال له: عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف خال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: مرحبا بك ما حاجتك؟

قال: جئت خاطبا.

قال: ومَنْ ذكرت؟

قال: المُلاة ابنتك.

قال: يا ابن أخي ما بها عنك رغبة، ولكنها امرأة لا يُفتات عليها في أمرها، فاخطبها إلى نفسها. فقام إليّ فقلت: ما صنعت؟ قال: قال كذا وكذا. قلت: ارجع بنا ولا تخطبها. قال: اذهب بنا إليها، فدخلنا دار زرارة، فإذا دار فيها مقاصير فاستأذنا على أمها، فلقيتنا بمثل كلام الشيخ، ثم قالت: وها هي في تلك الحجرة. قلت له: لا تأيها. قال: أليست بكرا؟ قلت: بلى. قال: أدخل بنا إليها، فاستأذنا، فأذنت لنا فوجدناها جالسة وعليها ثوب قوهي رقيق معصفر تحته سراويل يُرى منه بياض جسدها ومرط قد جمعته على فخدها ومصحف على كرسي بين يديها فأشرحت[1] المصحف ثم نحته[2]، فسلمنا، فردت ثم رحبت بنا، ثم قالت: منْ أنتَ؟ قال: أنا عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري خال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومدَّ بها صوته.

قالت: يا هذا، إنما يمد هذا الصوت للساسانيين[3]!

قال موسى: فدخل بعضي في بعض.

ثم قالت: ما حاجتك؟

[1]- أشرحت المصحف: ضمته بعضه إلى بعض.

[2]- نحته: وضعته جانبا.

[3]- الساسانيون: الفُرس.

قال: جئت خاطبا.

قالت: ومَنْ ذكرت؟

قال: ذكرتك.

قالت: مرحبا بكَ يا أخا أهل الحجاز، ما الذي بيدك؟

قال: لنا سهمان بخيبر أعطاناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومدَّ بها صوته، وعين بمصر وعين باليمامة ومال باليمن.

قالت: ... فإني أظنك تريد أن تجعلني كشاة عكرمة، أتدرى من عكرمة؟

قال: لا.

قالت: عكرمة بن ربعي، فإنه كان نشأ بالسواد، ثم انتقل إلى البصرة وقد تغـذّى بـاللبن. فقال لزوجته: اشترى لنا شاة نحتلبها وتصنعين لنا من لبنها وكامخا[1]، ففعلت وكانت عندهم الشاة إلى أن استحرمت، فقالت: يا جارية خذي بأذن الشاة وانطلقي بها إلى التيّاس فانزي[2] عليها، ففعلت فقال التيّاس: أخذ منك على النزوة درهما، فانصرفت إلى سيدتها فأعلمتها. فقالت: إنما رأينا من يرحم[3] ويعطى، وأمّا من يرحم ويأخذ فلم نره... ولكن يا أخا أهل المدينة أردت أن تجعلني كشاة عكرمة.

فلمّا خرجنا قلت له: ما كان أغناك عن هذا. قال: ما كنت أظن أن امرأة تجترئ على مثل هذا الكلام[4].

الصمت حكمة

*قال نوح الأسود: رأيت امرأة تأتي أبا عبد الله البرائي فتجلس تسمع كلامه، ولا تكاد تتكلم ولا تسأل عن شئ، فقلت لها ذات يوم: لا أراك يرحمك الله تتكلمين ولا تسألين عن شئ؟

فقالت: قليلُ الكلام خيرٌ من كثيره إلا ما كان من ذكر الله، والمنصت أفهم للموعظة، ولن ينصحك امرؤٌ لا ينصح نفسه، وجملة الأمر يا أخي إن أردت الله بطاعة أرادك الله برحمةٍ، وإن سلكت سبيل المعرضين فلا تلم إلا نفسك إذا صرت غدا في زمرة الخاسرين.

---

[1] - الكامخ: إدام يؤتدم به.

[2] - انزي: نزا الذكر على الأنثي أي سفدها.

[3] -أدخله في رحمها: واقعها وضاجعها.

[4] - العقد الفريد لابن عبد ربه.

قال: ثم استبكت فقامت. وسمعتها تعظ ابنها يوما، وتقول: ويحك يا بني، احذر بطالات الليل والنهار، فتنقضي مهلات الأعمار، وأنت غير ناظر لنفسك ولا مستعد لسفرك، ويحك يا بني، ما من الجنة عِوض ولا في ركوب المعاصي ثمن من حلول النهار، ويحك يا بني.. مهِّد لنفسك قبل أن يُحال بينك وبين ذلك، وجِدّ قبل أن يجد الأمر بك، واحذر سطوات الدهر وكيد الملعون عند هجوم الدنيا بالفتن وتقلبها بالعِبر، فعند ذلك يهتم التقي كيف ينجو من مصائبها. ثم قالت: بؤسا لك -يا بني- إن عصيت الله وقد عرفته وعرفت إحسانه، وأطعت إبليس وقد عرفته وعرفت طغيانه[1].

الخليل والمرأة اليشكرية

*كان للخليل بن أحمد[2] صديق يُكنى أبا المعلَّى، مولىّ لبني يُشكر، وكان أصلع شديد الصلع، فبينما هو والخليل جالسان عند قصر أوس إذ مرت بهما امرأة يُقال لها أمّ عثمان من ولد المعارك بن عثمان ومعها بنات لها، فقال أبو المعلى للخليل: يا أبا عبد الرحمن ألا نكلم هذه المرأة. قال: ويحك! لا تفعل فإنهن عدَّ شئ جوابا[3]، والقول إلى مثلك يسرع.

فجلسن يتروّحن، فقال لأمهن: يا أمة الله، ألك زوج؟

قالت: لا والله، ولا لواحدة منا.

قال: فهل لكنّ في أزواج.

قالت: وددنا والله.

قال: فأنا أتزوجك ويتزوج هذا إحدى بناتك.

فقالت له: أمّا أنت فقد ابتلاك الله ببلاتين، أمّا أحدهما فإنه قد قرع رأسك بمسحاة[4] وجعل لك عقصة[5] في قفاك بيضاء فكأنما صارت في قفاك نخامة[6] فبلغ من نوكك[7] أنك خضبتها بحمرة،

---

[1]- صفة الصفوة لابن الجوزي ج٢ ص٥٢٩-٥٣٠.

[2]- الخليل بن أحمد: هو الخليل بن أحمد الفراهيدي النحوي وصاحب كتاب "العروض" و "معجم العين".

[3]- أعدَّ للشيء جوابا: أي أسرع إلى الجواب وإصابة المعنى.

[4]- المسحاة: الموس.

[5]- العقصة: الخصلة.

[6]- النخامة: ما يلفظه الإنسان من فمه أو البصاق.

[7]- النوك: الحمق.

فلو كنت إذ ابتليت خضبت بسواد فغطيت عوارك هذا الذي أبداه منك، ثم قالت له: أظنك من رهط الأعشى.

فقال لها أبو المعلى: أنا مولى لبنى يشكر.

قالت: أفتروى بيت الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي أنكرت من الحوادث إلاّ الشّيبُ والصّلعا

فما بقي بعد هذا إلا الموت هُزالا، ثم التفتت إلى الخليل، فقالت: مَنْ أنتَ يا عبد الله؟

فقال: أنا الخليل بن أحمد، كفي رحمك الله، فقد والله نهيته عن كلامك وحذرته هذا.

قالت: أمَّا إنك قد نصحت له، أما علم هذا الأحمق أن النساء يخترن من الرجال المسحُلاني[1]، المظرانيّ، المخبرانيّ.

قال: فضحك الخليل ثم قامت المرأة ومعها بناتها يتهادين، فتمثل أبو المعلى بقول عمر بن أبى ربيعة المخزومي:

فتهادين وانصرفن ثقال الحقائب

فقالت: يا أحمق أما تدرى ما قال الشاعر في قومك؟

قال: لا.

فقالت: قال:

ويشكر لا تستطيع الوفاء وتعجز يشكر أن تغدرا

وإني أقسم بالله لو كان عددنا بعدد ما أهدى مالك العُكْلي إلى عمرة بنت الحارث النميري ما أعطيناك ولا صاحبك منها شيئا.

فقال الخليل: نشدتُك بالله، كم كانت الهدية التي أهداها العُكْلي إلى النميرية؟ قالت له: أراك حاذقا بالتجميش[2]، قليل الرواية لشعر، ثم أنشدته قول العُكْلي:

هديتي أخت بنى نمير لحرك يا عمرةُ ألف عير

في كل عير ألف كرَّ أَيْر[3]

قال: فقال الخليل: أما إنّه قد قصر، أفلا جعل لها بعض الهدية ولم يدعها فارغة!

[1]- المسحلاني: أي الطويل أو ذو الشعر المرسل غير الأجعد.

[2]- التجميش: المغازلة والملاعبة.

[3]- الكر: الحبل، ويريد به الطويل.

قالت: قد أشفق على هديته أن تحترق، ألم ترو بيت جرير حيث يقول:

ولو وضعت فقاحُ بنى نمير   على خبث الحديد إذا لذابا

فقال الخليل لأبي المعلى:

نصحتك يا محمد إنّ نُصحي   رخيص يا رفيقي للصديق

فلم تقبل وكم مِن نصح ودٍّ   أضيعَ فحاد عن وضح الطريق[١]

---

[١]- ذيل الأمالي للقالي ص ١٩٧-١٩٩.

المصادر والمراجـــــع

١- أحكام النساء، الإمام أبى الفرج جمال الدين بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق زياد حمـدان ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان ١٩٨٨ .

٢- أخبار النساء في العقد الفريد لابن عبد ربه، جمع وشرح عبد مهنا وسمير جابر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٦ .

٣- أخبار النساء في كتاب الأغاني، عبد الأمير مهنا، ط ا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيـروت، لبنـان، ١٩٨٨.

٤- أخبار النساء في التراث العربي، ابن الجوزي، تحقيق إيهاب كـريم، ط ا، دار النـديم، بيـروت، لبنان، ١٩٩١،

٥- أدب الدنيا و الدين، الماوردي، تحقيق مصطفي السقا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، بيروت، لبنان، ١٩٥٥.

٦- أدب الكتاب، ابن قتيبة، تحقيق على فاعور، ط ا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨.

٧- أعلام النساء في عالمي العرب و الإسلام، عمر رضـا كحـال، ٥ج، ط٩، مؤسـسة الرسـالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٩.

٨- الأعلام، خير الدين الزركلـي (ت١٩٧٦م)، ٨ج، ط٦، دار العلـم للملايـين، بيـروت، لبنـان، ١٩٨٤هـ .

٩- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦م)، ١٨ج، ٩مج، ط ا، دار إحياء التراث، بيروت .لبنـان، ١٩٩٤.

١٠- ألف حكاية وحكاية (من الأدب العربي القديم)، حسين أحمد أمـين، الهيئـة المـصرية العامـة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة القاهرة، ١٩٩٨.

١١- الأمالي، الإمام أبى على القالي، ط٢، دار الحديث للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ١٩٤٨.

١٢- بدائع الزهور في وقائع الدهور، الإمام الشيخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، تحقيـق الـشيخ خليل إبراهيم، ط٢، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٩١.

١٣- البداية و النهاية، ابن كثير، ١٤ج، دار المعارف، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

١٤- البيان و التبين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هـارون، ط٤، مكتبـة الخـانجي، القـاهرة، ١٩٧٥.

١٥- تاريخ الأمم و الممالك، الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفاضـل إبـراهيم،ط٢، ١١ج، ١١مج، روائع التراث العربي، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

١٦- تحقه العروس، محمود مهدي الإستنابولي، ط٦، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٥.

١٧- تنبيه الغافلين، الليث السمرقندي، ط٢، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨.

١٨- التيجان، وهب بن منبه، رواية بن هشام، حيدرأباد: ٣باد، ط ١، ١٣٧٤هـ.
١٩- الجواري، د. جبور عبد النور، ط٢، سلسلة إقرأ.٦ ، دار المعارف، القاهرة.
٢٠- الجواري و الحظايا، جمال بدران، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣.
٢١- الحب المثالي عند العرب، د. يوسف خليف، دار قباء للطباعة والنشر و الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨.
٢٢- حياة الصحافة، محمد يوسف الكاندهلوى، تحقيق الشيخ نايف العباس و محمد علي دولة،ط٢، دار القلم، دمشق.سوريا، ١٩٨٣.
٢٣- الداء و الدواء، ابن القيم الجوزية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٧.
٢٤- ذيل الأمالي و النوادر، الإمام أبي علي القالي، ط٢، دار الحديث للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٤.
٢٥- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام، الرياض، ١٩٩٣.
٢٦- روضة العقلاء و نزهة الفضلاء، الإمام أبي حاتم محمد، تحقيق محمد عبد الحميد و محمد عبد الرزاق حمزة و محمد حامد الفقي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٩٧٧.
٢٧- روضة المحبين و نزهة المشتاقين، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .
٢٨- رياض الصالحين، الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النوري، ط١، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان ١٩٨٥ .
٢٩- الزهد، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتاب العربي، بيروت، لبيان ١٩٨٨ .
٣٠- الزهد، حسن البصري، تحقيق د. محمد عبد الرحيم محمد، دار الحديث بالقاهرة، ودار الوليد بجدة، السعودية.
٣١- السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفي السباعي، ط٥، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا ١٩٨٠ .
٣٢- الشعر والشعراء (أو طبقات الشعراء)، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم أبو محمد (ت٢٧٦هـ)، تحقيق د. مفيد قميحه، ط٢، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ١٩٨٥ .
٣٣- شهيرات نساء العرب والإسلام، محمد رفعت، ط١، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٩٩٦ .
٣٤- صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفي ديب، ط١، دار ابن كثير، دمشق وبيروت ١٩٩٠ .
٣٥- طرائف النساء في التراث العربي، إيهاب كريم، ط١، دار النديم، بيروت، لبنان، ١٩٩١.
٣٦- طرائف النساء رضا ديب ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠ .
٣٧- العروس المرغوبة، محي الدين محمد عبد الواحد، ط١، الرياض، ١٩٩٦ .
٣٨- العشاق الثلاثة، زكي مبارك، ط٢، سلسلة إقرأ ٢٦، دار المعارف القاهرة .

٣٩- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٧هـ)، ٦ ج ،تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الأبياري وعبد السلام هارون، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٩١ .

٤٠- عيون الأخبار، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم أبو محمد (ت ٢٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٦ .

٤١- فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام، القاهرة ١٩٩٤ .

٤٢- فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان .

٤٣- قصص الحب العربية، عبد الحميد إبراهيم محمد، ط١، سلسلة إقرأ ٢٨٨، دار المعارف، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٨ .

٤٤- الكامل في التاريخ، ابن الأثير على بن محمد السيباني أبو الحسن، ١٤ج، ١٣مج، دار صادر، بيروت، لبنان ١٩٨٢ .

٤٥- الكامل في اللغة والأدب، أبي العباس ابن المبرد، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان .

٤٦- كتاب الأذكياء ابن الجوزي، المكتبة الأموية، عمان، الأردن .

٤٧- كيد النساء (حكايات من ألف ليلة وليلة)، المركز العربي للنشر والتوزيع، الأسكندرية، بدون تاريخ .

٤٨- اللؤلؤ والمرجان، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٦.

٤٩- مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت . لبنان ١٩٩٥ .

٥٠- مختار الأغاني، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بم منظور الأفريقي المصري (ت ٦٦٣٠ - ٧١١)، ط١، ١٢ج، ١٩٦٤ .

٥١- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ترتيب محمود خاطر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧ .

٥٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر، الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، ٤مج، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بلا تاريخ .

٥٣- المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح الأبشيهي المحلي، تحقيق عبد اللطيف سامر ودياب محمد خضر، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، بلا تاريخ .

٥٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، لبنان .

٥٥- مصارع العشاق للشيخ أبى محمد جعفر ابن أحمد الحسين السراج، القاهرة، مطبعة التقدم ١٩٠٧.

٥٦- معجم الشعراء، المرزباني أبي عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤) ط١ مكتبة القدس، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ .

٥٧- معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط٤، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٩٤ .

٥٨- مكارم الأخلاق، الإمام أبي بكر أبي الدنيا، تحقيق محمد عبد القادر، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ١٩٨٩ .

٥٩- مواقف من حياة النساء، عماد حسن الشافعي، ط١، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٩٩٥ .

٦٠- موسوعة الزواج الإسلامي، الشيخ عبد الحميد كشك، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة .

٦١- نساء نزل فيهن قرآن، عبد العزيز الشناوي، ط١، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٩٩٢ .

٦٢- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.

محتويات الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة